جامعة الجزيرة
معهد إسلام المعرفة (إمام)

سلسة الكتب المنهجية (٦)

العلم والمعرفة بين رؤيتين للعالم
الظاهرة السببئية حالة تفسيرية

بروفيسور/ محمد الحسن بريمة إبراهيم

الفصل الأول

المقدمة المنهجية

الغرض الأساس من هذا البحث هو أن نسوق الأسباب التي نرى أنها تبرر مشروع إسلام المعرفة، أو التأصيل المعرفي، الذي تتصدى له عدد من المؤسسات بداخل السودان وخارجه. ونحن نفعل ذلك إن شاء الله من خلال إبراز الاختلاف الجوهري بين النظام المعرفي (التوحيدي) ونظيره (الدنيوي)، في كل ما أسميناه بأركان المعرفة العلمية التي حصرناها، لأغراض هذا البحث، في خمسة، ولا ندعي أنها جامعة مانعة، وهي:

1/ مصدر العلم
2/ محتوى العلم
3/ العالِم
4/ منهجية العلم
5/ أهداف(تطبيقات) العلم

إنّ الطريقة التي نتبعها في هذه الدراسة المقارنة تبدأ بسعينا لاستنباط المكونات الأساسية للنظامين المعرفيين (التوحيدي) و(الدنيوي) من "رؤية كلية للعالم" تتعلق بالاجتماع الإنساني نستنبطها من القرآن الكريم، وتتولد منها رؤيتان فرعيتان للعالم هما "الرؤية التوحيدية"، و"الرؤية الدنيوية"، وتكوّنان معا أساسا للنظامين المعرفيين بحيث يمكن المقارنة بينهما. كذلك من المهم أن نؤكد مبكراً أننا عندما نستنبط أهم معالم رؤية

العالم الدنيوية من القرآن الكريم، سواء كان ذلك في بعدها المعرفي، أو العملي، فإننا لا نقصد بأي حال أن يفهم من ذلك أن القرآن الكريم يطرحها كخيار للحياة يجوز للناس الأخذ به على سواء مع نظيره التوحيدي، ولكنه يظل خياراً متاحاً لمن يريده ويتحمل تبعات اختياره، أما نحن فنقصد منه الآتي:

أولاً: وكما يقولون بضدها تتميز الأشياء، حيث أنّ إرجاع الخيار الدنيوي، الذي تقوم عليه الحضارة الغربية المهيمنة اليوم، إلى أصوله المنطلقة من الحكمة الربانية في خلق الإنسان وابتلائه، وإثبات أنه الطريق الذي يؤدي إلى التهلكة في الدنيا والآخرة، يجعلنا في وضع الرافضين له على علم؛ ولا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون.

ثانياً: إنّ الخيار الدنيوي الذي جوهره "تعظيم متاع الحياة الدنيا" له جذور وامتداد في النفس البشرية، كما سوف يتضح لاحقاً، مما يجعل مظاهره السلوكية حاضرة، بصورة أو أخرى، في حياة الفرد والجماعة المسلمة. لذلك ينبغي تحديد معالمه وإنشاء علوم اجتماعية مبنية على معطياته المعرفية كجزء أصيل من النظرية الاجتماعية الإسلامية الأشمل، حتى نتمكن من دراسة الظواهر الاجتماعية في المجتمعات المسلمة بصورة أكثر واقعية. بل إنّ مثل هذه النظرية ذات الصبغة العالمية سوف تمكننا من دراسة المجتمعات الأخرى التي يسودها النظام الدنيوي، ومن ثم التعامل معها على بصيرة.

ثالثاً: إنّ إبراز معالم النظام المعرفي الدنيوي، وإثبات محدوديته بالمقارنة مع نظيره التوحيدي، وأنّ الأخير يستوعبه ويتجاوزه، سوف يثبّت الآخذين بالنظام التوحيدي، وربما يستقطب المتشككين في جدواه العلمية.

الإنسان الذي استخلفه الله تعالى في الأرض تتمحور طبيعته النفسية حول ثلاث خواص: الخاصية العقلية؛ الخاصية الوجدانية؛ الخاصية الإرادية. الخاصية العقلية معنية في الأساس بتمكين الإنسان من تكوين تصورات موضوعية للكون، أي من تكوين رؤية علمية للعالم تمكنه من التعرف على هذا الوجود الذي هو جزء منه؛ أما الخاصية الوجدانية فهي التي يعتمد عليها الإنسان في تحويل رؤية العالم العقلية الموضوعية إلى رؤية ذاتية للحياة حيث يبني كل إنسان تفضيلاته القيمية ومقاصده ودوافعه الحياتية. وهذه الرؤية الحياتية هي التي من خلالها يتعامل كل إنسان مع الحياة ويتأسس عليها عمله، وتمثل بصمة خاصة به تعبر عن شخصيته المتفردة، رغم أنها تتأسس على قواسم مشتركة مع آخرين بحيث تسمح بإقامة مجتمع يضم أولئك الذين يتشاركون رؤية العالم المعنية. الخاصية الثالثة، وهي الإرادية، فهي معنية بتمكين الإنسان من تحويل رؤيته الحياتية إلى أفعال إرادية تمكنه من العمل العمراني في زينة الحياة الدنيا.

إنّ دين الإسلام يقوم على محاور ثلاثة، وهي متفاعلة ومتكاملة؛ المحور الأول هو العلم التوحيدي، ونطلق علي هذا المحور تجاوزا (عمارة العقل).[1] والعلم التوحيدي الذي نقصده نعرّفه، إلى حين، تعريفا وظيفيا بأنه ذلك الذي يحقق الإيمان بالله تعالى في القلب، والعمل الصالح في الأرض. والمحور الثاني المتولد عن المحور الأول هو الإيمان بالله تعالى، ونطلق عليه، تجاوزا أيضا، (عمارة القلب)؛ والمحور الثالث المتولد عن تفاعل المحورين السابقين هو العمل الصالح(عمارة الأرض) في زينة الحياة الدنيا(المال والبنون)؛ فلا إيمان بلا علم، ولا عمل صالح إلا بعلم وإيمان،

[1] - نقول تجاوزا نزولا على حكم ما شاع من اصطلاح حتى يسهل إدراك المعنى المقصود، وإلا فإن العقل في القرآن الكريم ليس جوهرا، بل هو فعالية من فعاليات القلب بالمفهوم القرآني للقلب، وسوف يتأكد ذلك لاحقا.

ولا نفع لعلم ولا لإيمان حتى يعمل بهما. هذه العلاقة التفاعلية تؤدي استدامتها إلى نمو مستدام في كل من العلم والإيمان والعمل الصالح مما يؤدي إلى حفظ صلاح الأرض واستدامة هذا الصلاح.

يجب أن نلاحظ أن هذه المحاور الثلاثة لدين الإسلام تقابل تماماً الخصائص الثلاث لتركيبة النفس البشرية المذكورة آنفا بحيث يصبح الدين من خلال تفاعل العلم التوحيدي مع الخاصية العقلية للنفس رؤية علمية موضوعية للعالم يتحقق بسببها الإيمان، الذي بدوره يتفاعل مع الخاصية الوجدانية للنفس بحيث يتمكن الإنسان من التحقق برؤية وجدانية تقويمية توحيدية للحياة. ويتفاعل محور العمل الصالح مع الخاصية الإرادية للنفس ليتحقق العمران الاستخلافي للأرض. الأمة الإسلامية اليوم في حاجة إلى ثلاث ثورات(Paradigm Shifts)[1] ليتحقق لها الانتقال من رؤية العالم الدنيوة الغربية ونظامها المعرفي الوضعي، المهيمنان على كل أوجه حياتها، والحاكمان عليها بتبعية مُذلّة، إلى رؤية العالم التوحيدية ونظامها المعرفي حتى تتمكن من النهوض والمشاركة في المنجزات الحضارية للبشرية، ثم الريادة والشهادة المستحقة لها.

[1] - نستخدم مفهوم الثورة هنا بمعناه الكُوني في إطار نظرية ثوماس كون الذائعة الصيت (بنية الثورات العلمية)، ونرى أنها فلسفة العلم الأنسب لوصف مرحلة المخاض المعرفي الذي تمر به الأمة الإسلامية اليوم، وإن كانت النظرية في أصلها معنية بالعلوم الطبيعية. ويرى كون أن تاريخ العلم الطبيعي يدل على أن التطورات النوعية في العلم تتم من خلال الثورات، وهي أحداث قليلة في تاريخ العلم ولكنها مفصلية في تطوره، بينما معظم التطور العلمي يتم تراكميا في إطار ما يسميه كون العلم العادي(Normal Science)، وأن هذا الأخير هو الذي تتخلق في داخله الثورات العلمية. كذلك يقرر أنه لا يمكن أن تحدث الثورة المعرفية إلا إذا كانت هناك نظرية جديدة بديلة تستوعب وتتجاوز النظرية السائدة. وقد تخلى كون عن مصطلح "النموذج الإرشادي" لصالح مصطلح "نظرية" في إطار مراجعاته المستمرة لنظريته على ضوء الانتقادات التي وجهت لها، كما تراجع عن مبدأ القطيعة النهائية بين النظريتين لصالح علاقة متعينة بينهما. أنظر الآتي في هذا الموضوع:

History of Twentieth-Century Philosophy of Science – Hickey 2005; Kuhn,T. :Logic of Discovery or Psychology of Research?, in: Lakatos, I. and Musgrave, A. (eds) 1970. Criticism and the Growth of Knowledge (Cambridge: CUP). Thomas S. Kuhn :The Structure of Scientific Revolutions Postscript – 1969; Third Edition University of Chicago Press, Chicago, [1962, 1970] 1996

الثورة الأولى هي الثورة المعرفية التي تفجر طاقات الإبداع العقلي في مجال العلوم الكونية، طبيعية واجتماعية، تأسيساً على الوحي كمصدر للعلم وفلسفته؛ والثورة الثانية هي ثورة تربوية تتأسس على الثورة المعرفية لتفجر طاقات الإيمان في القلب المسلم. والثورة التربوية هذه لابد فيها من توظيف العلم المنتج في الثورة المعرفية، واتباع المنهج النبوي في التربية، وأطلق عليه اصطلاحا منهج (الشيخ والمريد) حيث يقوم الشيخ المتحقق بالإيمان وأخلاق التقوى بتعهد المريد تربويا حتى يتأكد من أنه قد تخلّى عن ظاهر الإثم وباطنه، وأنه قد تحلّى بأخلاق التقوى تأسيسا على قول الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا7 فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا 8 قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا 9 وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا 10﴾(الشمس). وهذا المنهج التربوي، العلمي التجريبي لا العرفاني، كما سوف نبين أدناه في هذه المقدمة، توجد أصوله النظرية والتطبيقية بحمد الله في كتب أسلافنا من سالكي طريق رسول الله، صلى الله عليه وسلم. ولا أقصد التكرار الحرفي لتلك التجارب التربوية، وإنما أقصد دراسة المنهج وتعميمه بشروط الزمان والمكان مع الاستفادة من منتجات الثورة المعرفية. فالشيخ السالك يمكن أن يكون بطل قصة من "القصص الحق" يقصها المعلّم المتزكّي لتلاميذه وهم يتحلّقون حوله تحت شجرة ظليلة في المدرسة، ثم يستخرج منها الدروس التربوية المستفادة، وعبر منهج تربوي رفيق يدعوهم إلى التحقق في أنفسهم بتلك الدروس التربوية، ويقوم شخصيا برعاية كل تلميذ لمساعدته في عملية التزكّي، كل حسب وسعه.

لابد أن يكون المسلم الراشد، الذي تكون مقاصد الدين ووسائل تحقيقها، بشروط الزمان والمكان، هي خياراته الحياتية الإرادية، هو ثمرة هذه الثورة التربوية. نحن في هذا الزمان لم نعد نربي ولكن فقط نعلّم تلْقيناً

للمعلومات المتاحة في المناهج التعليمية، وهي كما تعلمون مناهج ذات مضامين معرفية إما غربية علمانية فاقدة للروح التي تجعلها مثمرة في الغرب، وإما إسلامية تراثية منقطعة عن الواقع التاريخي الذي أنتجت من أجله، وعن تحديات الواقع المعاصر الذي توظف فيه. لذلك أصبحت الأمة الإسلامية اليوم كالمنبت، لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى.

الثورة الثالثة، وهي الثورة الإرادية[1]، تتأسس على الثورتين من قبلها لتطلق طاقات العمل الصالح الحر المبدع لدى المسلم الراشد في مجال العمران الاستخلافي. هنا مجال إصلاح الدوافع والنوايا(المقاصد) لتكون نيّة المسلم خير من عمله، ومجال تصويب الإرادات الفردية والجمعية لتتصوّب نحو زينة الحياة الدنيا(المال، البنون) لتحقيق مقاصد الدين في مجال العمل العمراني الصالح، شكرا يزيد النعمة ويديمها، ومجال الإصلاح المؤسسي والبنيوي حيث البنية التحتية اللازمة لانطلاق العمل الصالح في فضاء زينة الحياة الدنيا دون عوائق. والقرآن الكريم يربط ربطا وثيقا بين انعقاد الإرادة القلبية على الفعل وبين العمل الخارجي الذي يتبعها، ويأتي على شاكلتها حتما، إلا أن تحول بينه وبين التحقق إرادة مناهضة وغالبة له، ودليلنا على ذلك هذا الفيض من آيات القرآن الكريم: (فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾)(البروج)؛ (يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ...﴿١٨٥﴾)(البقرة)؛ (يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ... ﴿١٧٦﴾)(آل عمران)؛ (أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۗ ..﴿١٠٨﴾)(البقرة)؛ (تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ...﴿٦٧﴾)(الأنفال)؛ (قَالُوٓاْ

[1]- يرى أحد الإخوة العلماء أن مفهوم "القدرة" هو الأنسب بدلا عن مفهوم "الإرادة"، ولكن الذي أراه هو أن القدرة إنما تتعلق بموارد خارجية، ذاتية وغيرذاتية، تمكّن من تحقيق الفعل المراد تحقيقه، بينما نحن هنا نتكلم عن الأمور القلبية التي لابد أن تسبق تحقق الفعل في الوجود الخارجي، لذلك فمفهوم الإرادة أنسب.

إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾(إبراهيم)؛ (فَأَرَادَ أَن يَسۡتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا ﴿١٠٣﴾(الإسراء)؛ (فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ...﴿٨٢﴾(الكهف)؛ (فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴿٧٧﴾(الكهف)؛ (يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَا وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٣٧﴾(المائدة)؛ (فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٩٨﴾(الصافات).

المضامين المعرفية التي وردت في إطار هذه الثورات الثلاث يجمعها قول الله تعالى: (لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾(آل عمران)[1]. جاء في تفسير المنار حول معنى هذه الآية الآتي: " الْوَصْفُ الثَّانِي قَوْلُهُ: يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ: الْآيَاتُ هِيَ الْآيَاتُ الْكَوْنِيَّةُ الدَّالَّةُ عَلَى قُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَتِلَاوَتُهَا عِبَارَةٌ عَنْ تِلَاوَةِ مَا فِيهِ بَيَانُهَا وَتَوْجِيهِ النُّفُوسِ إِلَى الِاسْتِفَادَةِ مِنْهَا وَالِاعْتِبَارِ بِهَا، وَهُوَ الْقُرْآنُ، كَقَوْلِهِ – عَزَّ وَجَلَّ – فِي

[1]- الشكر في هذا المقام للدكتور محمد المجذوب محمد صالح الذي نبهني لعلاقة هذه الآية الكريمة بالمضامين التي وردت في الثورات الثلاث، وإن كان هو يرفض توظيف المفهوم الكُوني للثورة، ويستبدله بمفهوم الإصلاح القرآني، وأرى أن الأمر قد التبس عليه لظنه أن الثورة التي ندعو لها هي من داخل رؤية العالم التوحيدية ونظامها المعرفي، لكن الأمر ليس كذلك، بل هي ثورة تخرجنا من رؤية العالم الدنيوية ونظامها المعرفي الوضعي إلى رحاب رؤية العالم التوحيدية ونظامها المعرفي. مثل هذا الانتقال لا يمكن أن يتم عن طريق إصلاح رؤية العالم الدنيوية ونظامها المعرفي، وإن كان يقتضي بناء رؤية العالم التوحيدية وتوظيفها في إصلاح النظام المعرفي الإسلامي التوحيدي حتى يكون بديلا مقنعا يتحول إليه النشاط المعرفي والواقع العملي، ونظرية توماس كون تفترض وجود هذا البديل، على المستوى المعرفي على الأقل. وهذا يعني أن قضية إسلام المعرفة يجب أن تمشي على رجلين، إحداهما النقد الموضوعي لرؤية العالم الدنيوية الغربية ونظامها المعرفي الوضعي، وتبيان ما لحق بالأمة الإسلامية من ضرر بسبب تبنيها لهما، وثانيهما إصلاح النظام المعرفي الإسلامي وتشغيله لإنتاج العلوم التي تحتاجها الأمة لإقامة الدين في هذا الزمان.

أَوَاخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لِآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ [3: 190] وَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لِآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [2: 164] وَمِنْهَا مَا لَمْ يُذْكَرْ فِيهِ كَلِمَةُ " الْآيَاتِ " كَقَوْلِهِ – تَعَالَى –: وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا [91: 1، 2] إِلَخْ.

الْوَصْفُ الثَّالِثُ وَالرَّابِعُ: قَوْلُهُ – تَعَالَى –: وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ قَالَ الْأُسْتَاذُ: تَزْكِيَتُهُ إِيَّاهُمْ هِيَ تَطْهِيرُهُمْ مِنَ الْعَقَائِدِ الزَّائِغَةِ وَوَسَاوِسِ الْوَثَنِيَّةِ وَأَدْرَانِهَا، وَالْعَقَائِدُ هِيَ أَسَاسُ الْمَلَكَاتِ ; وَلِذَلِكَ نَقُولُ: إِنَّ الْعَرَبَ وَغَيْرَهُمْ كَانُوا قَبْلَ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مُلَوَّثِينَ فِي عُقُولِهِمْ وَنُفُوسِهِمْ. أَقُولُ: قَدْ سَبَقَ عَنْهُ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْبَقَرَةِ (2: 129) أَنَّ الْمُرَادَ بِالتَّزْكِيَةِ تَرْبِيَةُ النُّفُوسِ، وَأَنَّهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَانَ مُرَبِّيًا وَمُعَلِّمًا، وَأَرَادَ بِقَوْلِهِ: إِنَّ الْعَقَائِدَ أَسَاسُ الْمَلَكَاتِ، أَنَّ مَنْ لَمْ يَتَزَكَّ عَقْلُهُ وَيَتَطَهَّرْ مِنْ خُرَافَاتِ الْوَثَنِيَّةِ وَجَمِيعِ الْعَقَائِدِ الْبَاطِلَةِ لَا تَتَزَكَّى نَفْسُهُ بِالتَّخَلِّي عَنِ الْأَخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ وَالتَّحَلِّي بِالْمَلَكَاتِ الْفَاضِلَةِ ; فَإِنَّ الْوَثَنِيَّ مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ وَرَاءَ الْأَسْبَابِ الطَّبِيعِيَّةِ الَّتِي ارْتَبَطَتْ بِهَا الْمُسَبِّبَاتُ مَنَافِعَ تُرْجَى وَمَضَارَّ تُخْشَى مِنْ بَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَأَنَّهُ يَجِبُ تَعْظِيمُ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ وَالِالْتِجَاءُ إِلَيْهَا لِيُؤْمَنَ ضُرُّهَا، وَيُنَالَ خَيْرُهَا، وَيُتَقَرَّبَ بِهَا إِلَى خَالِقِهَا وَأَنَّ مَنْ يَعْتَقِدُ هَذَا يَكُونُ دَائِمًا أَسِيرَ الْأَوْهَامِ، وَأَخِيذَ الْخُرَافَاتِ، يَخَافُ فِي مَوْضِعِ الْأَمْنِ وَيَرْجُو

حَيْثُ يَجِبُ الْحَذَرُ وَالْخَوْفُ، وَتَتَعَدَّى قَذَارَةُ عَقْلِهِ إِلَى نَفْسِهِ فَتَفْسُدُ أَخْلَاقُهَا وَتُدَنَّسُ آدَابُهَا، فَتَزْكِيَةُ النَّفْسِ لَا تَتِمُّ بِتَزْكِيَةِ الْعَقْلِ، وَلَا تَتِمُّ تَزْكِيَةُ الْعَقْلِ إِلَّا بِالتَّوْحِيدِ الْخَالِصِ.

قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ: أَمَّا تَعْلِيمُهُمُ الْكِتَابَ فَمَعْنَاهُ أَنَّ هَذَا الدِّينَ الَّذِي جَاءَ بِهِ قَدِ اضْطَرَّهُمْ إِلَى تَعَلُّمِ الْكِتَابَةِ بِالْقَلَمِ وَأَخْرَجَهُمْ مِنَ الْأُمِّيَّةِ ; لِأَنَّهُ دِينٌ حَثَّ عَلَى الْمَدَنِيَّةِ وَسِيَاسَةِ الْأُمَمِ.

أَقُولُ: كَانَ أَوَّلَ حَاجَتِهِمْ إِلَى تَعَلُّمِ الْكِتَابَةِ وُجُوبُ كِتَابَةِ الْقُرْآنِ، وَقَدِ اتَّخَذَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَتَبَةً لِلْوَحْيِ وَكَتَبُوا لَهُ كُتُبًا دَعَا بِهَا الْمُلُوكَ وَالرُّؤَسَاءَ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَكَانَ يَأْمُرُهُمْ بِتَعَلُّمِ الْكِتَابَةِ. ثُمَّ كَانَ ذَلِكَ يَكْثُرُ فِيهِمْ عَلَى قَدْرِ نَمَاءِ مَدَنِيَّتِهِمْ وَامْتِدَادِ سُلْطَتِهِمْ، قَالَ: وَأَمَّا الْحِكْمَةُ فَهِيَ أَسْرَارُ الْأُمُورِ وَفِقْهُ الْأَحْكَامِ وَبَيَانُ الْمَصْلَحَةِ فِيهَا وَالطَّرِيقِ إِلَى الْعَمَلِ بِهَا، ذَلِكَ الْفِقْهُ الَّذِي يَبْعَثُ عَلَى الْعَمَلِ، أَوْ هِيَ الْعَمَلُ الَّذِي يُوَصِّلُ إِلَى هَذَا الْفِقْهِ فِي الْأَحْكَامِ أَوْ طُرُقِ الِاسْتِدْلَالِ وَمَعْرِفَةِ الْحَقَائِقِ بِبَرَاهِينِهَا ; لِأَنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ هِيَ طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ وَسُنَّتُهُ فِي الْعَقَائِدِ وَكَذَا فِي الْآدَابِ وَالْعِبَادَاتِ ; وَقَدْ مَرَّتِ الشَّوَاهِدُ الْكَثِيرَةُ عَلَى ذَلِكَ وَسَيَأْتِي مَا هُوَ أَكْثَرُ وَأَغْزَرُ إِنْ شَاءَ اللهُ – تَعَالَى–.

وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ أَيْ وَإِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي ضَلَالٍ بَيِّنٍ وَاضِحٍ. وَأَيُّ ضَلَالٍ أَبْيَنُ مِنْ ضَلَالِ قَوْمٍ مُشْرِكِينَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ وَيَتَّبِعُونَ الْأَوْهَامَ أُمِّيِّينَ لَا يَقْرَءُونَ وَلَا يَكْتُبُونَ،

فَيَعْرِفُونَ كُنْهَ ضَلَالَتِهِمْ وَحَقِيقَةَ جَهَالَتِهِمْ، فَضَلَالُهُمْ أَبْيَنُ مِنْ ضَلَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ، كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ."

فقوله تعالى (يتلو عليهم آياته) يؤسس لثورتنا المعرفية من حيث هي رؤية علمية موضوعية للعالم، ونظام معرفي توحيدي يشاد عليه بنيان علوم الدين. وقوله تعالى (ويزكيهم) يؤسس لثورتنا التربوية التي تجعل من مخرجات الثورة المعرفية قاعدتها العلمية. وقوله تعالى (ويعلمهم الكتاب والحكمة) يؤسس للثورة الإرادية حيث تعلّم مقاصد الدين الحياتية، وأحكامه الشرعية، ومن ثم تولد النوايا والإرادات المناسبة، وما يتبع ذلك من تحقيق المقاصد عملا في الواقع العمراني، والتزاما بالأحكام الشرعية في ضبط الفعل الاجتماعي المحقق لتلك المقاصد.

الشكل التالي يجسّد المسلّمة الأساسية لهذا البحث من خلال تلخيص العلاقة بين التركيبة النفسية للإنسان في أبعادها الثلاثة، وبين الدين بمحاوره الثلاثة، والثورات الثلاث التي لابد منها إن أردنا للأمة الإسلامية أن تتقدم بالإسلام، وأن تكون شاهدة على الناس.

شكل رقم(1)

العمران التوحيدي

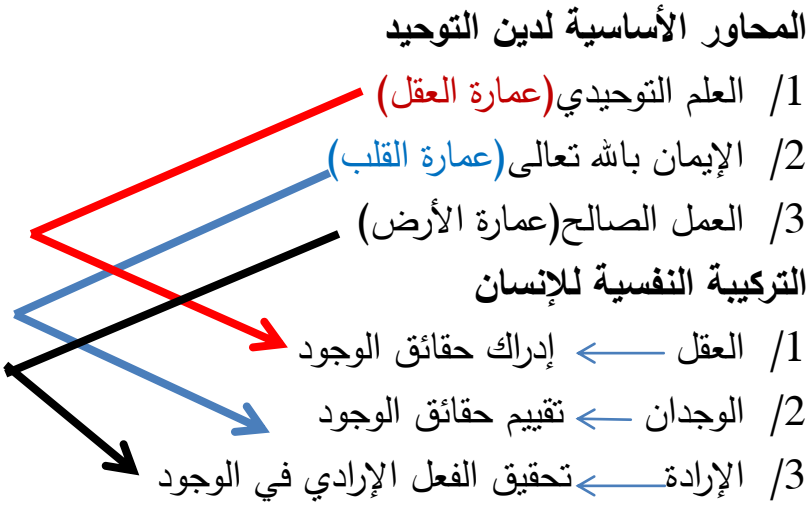

من الدلالات المهمة لمسلّمة البحث أعلاه أن علوم الإسلام التي تحتاجها الأمة لإقامة الدين في الحياة، وتحقيق الاستخلاف التوحيدي، مستقاة من الوحي والكون، هي في الأساس علوم كونية تجريبية، باستثناء العلوم العقلية المحضة كعلوم المنطق والرياضيات وقضايا فلسفة العلم التي هي مما لا يتم الواجب إلا به[1]. ونقصد بالتجريبية الآتي:

(البحث التجريبي هو وسيلة لكسب العلم بطرق الملاحظة، أو التجربة المباشرة، أو غير المباشرة. الدليل التجريبي- السجل المباشر للملاحظات والتجارب- يمكن تحليله كميا أو نوعيا. ومن خلال الصياغة الكمية للدليل، أو الفهم النوعي له،

[1] - لا يدخل فيما نعنيه تلك العلوم التي تسمّى باللدنية، التي يختص الله تعالى بها من يصطفي من عباده، وغير قابلة للتعميم، وإن كان النظام المعرفي الإسلامي يسمح بها. كذلك نحن هنا لا نقوم بعملية تصنيف جامعة مانعة للعلوم كلها، وإنما حصرنا أنفسنا في تلك العلوم التي تحتاجها الأمة لإقامة الدين في الحياة.

يستطيع الباحث الإجابة عن أسئلة ذات طبيعة تجريبية، مصاغة بصورة واضحة تسمح بالإجابة عنها من خلال ما تم جمعه من أدلة. يختلف تصميم البحث بحسب المجال والقضية محل البحث، وهناك من الباحثين من يجمع بين شكليّ التحليل، الكمّي والنوعي، للحصول على إجابة أدق لتلك الاسئلة التي لا يمكن دراستها معمليا، لا سيما في مجال العلوم الاجتماعية، وفي التعليم).[1]

التجريبية لا تعني "الوضعية" التي هي فلسفة للعلم تزعم أن الكون المحسوس هو وحده الذي يمكن أن يُعلم حقا للإنسان، وأن التجربة الحسية هي وحدها السبيل للحصول على ذلك العلم، بينما التجريبية تعني أن تحتوي المقولات العلمية، أنّى كان مصدرها، على محتوىً تجريبي يمكن من خلاله اختبار صدقها. فالتجريبية نظرية ومنهج علمي معتمد في الفلسفة الوضعية، ولكن الفلسفة الوضعية لا تستقل به دون غيرها من فلسفات العلم، فالمنهج التجريبي هو مولود شرعي للعلوم التي تولدت عن الحضارة الإسلامية من قبلِ أن توضع الوضعية. ونحن هنا نقول إن العلوم الضرورية التي تحتاجها الأمة لإقامة الدين في واقع الحياة المتجدد أبدا، سواء كان مصدرها الوحي، أو الكون الطبيعي والاجتماعي، سوف يكون المكوّن التجريبي سمة أساسية فيها. ذلك أن العلم الضروري المطلوب في الإسلام لإقامة الدين هو العلم المتعلق بالمحورين الثاني(الإيمان) والثالث(العمران)، وتنقسم بدورها إلى علوم مقاصد وعلوم وسائل، بينما العلم المطلوب للمحور الأول(العلم التوحيدي) فيمكن تسميته ب(علم العلم) الذي يدخل في باب ما لا يتم الواجب إلا به، وفيه تبحث القضايا التي تبحثها فلسفة العلوم عادة، مثل القضية الوجودية، القضية المعرفية، والقضية المنهجية. وفي

1- موسوعة وكيبيديا

إطار "علم العلم" هذا تناقش قضايا إسلامية منهجية مثل: "كيف نتعامل مع القرآن"؛ "كيف نتعامل مع السنة"؛ "منهجية القرآن المعرفية"؛ "الجمع بين القراءتين"؛ "التكامل المعرفي"؛ "أصول الفقه"...إلخ. وكل علم متخصص ومطلوب لإقامة الدين، بشروط الزمان والمكان، لابد أن ينتهي نسبه إلى الوحي، وتناقش قضاياه بهذا الشأن في محور "علم العلم". أما العلم المتعلق بالإيمان بالله تعالى فإن أدلة الإيمان كما وردت في القرآن الكريم، إضافة إلى القرآن الكريم ذاته كدليل إيمان مستقل بذاته باعتبار أن العلم الذي فيه شاهد على مصدره، هي أدلة كونية تقتضي النظر العلمي في الكون بشقيه الطبيعي والاجتماعي؛ وأما علوم العمل الصالح في مجال عمران الأرض فهي بالضرورة علوم كونية، سواء كانت العلوم التي تتعلق بالمادة موضوع العمران، أو العلوم التي تتعلق بالإنسان الفاعل في المادة، بما في ذلك العلوم ذات الأبعاد المعيارية كعلوم الفقه والتربية(التزكية). وميزان الحق في الأحكام المعيارية، فهما لحقيقتها وضبطا للفعل الاجتماعي المحقق لمقاصد الشريعة بها، هو الوحي ابتداءً، والنتائج العملية لتطبيقها في الواقع انتهاءً. والكونية هنا تشمل المجالين الطبيعي والاجتماعي، مع تباين البيانات والإجراءات التجريبية التي تقتضيها الطبيعة الخاصة بكل منهما، ومن ثم حتى علم الفقه، ذو المنطلقات المعيارية، المعني بدراسة أحكام التكليف، وأحكام الوضع للفعل الإنساني، هو علم كوني اجتماعي تجريبي، ذلك أن الفقيه قبل أن يصدر حكمه على الواقعة لابد له من دراستها، أي لابد له من فقه الواقع المتعلق بالمسألة، ولابد له في ذلك من توظيف المناهج التجريبية التي ينبغي تطويرها في مجال العلوم الاجتماعية الإسلامية. والمعيارية والقيمية الآتية من الوحي لعلوم الحياة الإسلامية مطلوب العمل بها في الواقع لتغيّره، ثم لتَحكُمه على الدوام،

ليتحقق الصلاح في الأرض ويدوم. ولا سبيل إلى التحقق من سلامة الفهم، والاستنباط من نصوص الوحي، وسلامة التطبيق، إلا بعلوم تبدأ من الوحي، وتنتهي بدراسة الواقع، وأخذ بياناتها منه. لذلك حتى علم التربية(التزكية) الإسلامي الذي أسست عليه منهج "الشيخ والمريد" في إطار الثورة التربوية، هو علم تجريبي يقوم على تطبيق المنهج النبوي في تزكية النفس، ويقتضي ذلك، في هذا الزمان، من العالِم المربّي القيام بتجارب تربوية يتم تصميمها بعناية تناسب طبيعة القيمة الأخلاقية السالبة المراد التخلّي عنها، أو القيمة الأخلاقية الموجبة المراد التحلّي بها، والوضع الحالي للشخص المستهدف بالتزكية، والبيئة العامة التي تحيط به ويتأثر بها ويؤثر فيها، سواء كانت التجربة للعالِم في خاصة نفسه، أو بهدف تأديب مريديه. تتبني التجربة التأديبية على علم أوّلي، أصل منشئه الوحي، يسبق التجربة ويحيط بكل عناصرها، ومن بعد ذلك وأثناء العملية التربوية تتم مراقبة القلب وأحواله، وأنماط الاستجابة التي تبديها النفس، والسلوك الناجم عن ذلك في مختلف الأحوال، ورصد وتصنيف كل ذلك بحسب مناسبته، أو مجانبته للمطلوب لنجاح التجربة التربوية، ثم التعميم، بعد الجم الغفير من التجارب، للحصول على قواعد العلم المتعلق بالنفس البشرية في كل الأحوال التي تتطلب تأديب النفس، لا سيما فيما يتعلق بتخلّيها عن أخلاق الفجور وتحلّيها بأخلاق التقوى.

يدخل في معنى التجريبية أيضا الأفعال الاجتماعية التعبدية المتعلقة بالشعائر وعلومها من صلاة وصوم وحج وزكاة، لأنها، أولا؛ أفعال اجتماعية تعبدية تتأثر بذات العوامل التي تؤثر في سائر أنواع الفعل الاجتماعي، الذي من طبيعته أن يكون تعبديا في المجتمع المسلم، وقد يكون غير ذلك بحكم الواقع. ثانيا؛ لأن العمل العمراني في

زينة الحياة الدنيا لكي يكون صالحا يقتضي إقامة هذه الشعائر التعبدية، التي مهمتها تزكية النفس ومن ثم العمل، على مستوى الفرد والمجتمع. والعمل الصالح هو ما كان خالصا لله تعالى ومنضبطا بما أقره الشارع من أحكام ووسائل تتعلق به. الصلاة، مثلا، تنهى عن الفحشاء والمنكر كما جاء في القرآن الكريم، وهي جملة خبرية، يصدّقها المؤمن اعتقادا بيقينه من الحق الذي جاء به القرآن الكريم، ولكن التصديق العملي لها يقتضي التجريب(العمل)، أي أن يصلي المسلمون، بشروط الزمان والمكان، كما رأوا الرسول، صلى الله عليه وسلم، يصلي ليتبينوا حقيقة الخبر. وبعد تجربة الصلاة كعبادة وعمل اجتماعي راتب للمؤمنين يجب أن تأتي الدراسة الميدانية لمعرفة أثرها على المصلّين، وعلى بيئتهم الاجتماعية والطبيعية، فإن تبين أنها لم تؤد إلى النتيجة المخبر عنها ترتب على ذلك مراجعة كيف صلّى المصلّون، أي مراجعة جملة العمل المتعلق بالصلاة كفعل اجتماعي، بل ربما اقتضى ذلك مراجعة الفقهاء لفقههم في الصلاة الذي بمقتضاه تعلم الناس الصلاة، ومدى ملاءمته لشروط الزمان والمكان. كما يمكن القيام بتجارب أخرى تحكمية حيث نختار عينات تصلي وأخرى لا تصلّي لنقارن أثر الصلاة على متغيرات كثيرة، كمية ونوعية، فردية وجمعية. ذلك أن المجال الحقيقي للفحشاء والمنكر، اللذين تنهى عنهما الصلاة، إنما هو زينة الحياة الدنيا(المال والبنون)، حيث ابتلاء النفس بفجورها وتقواها، تدافعا بين الناس لتعظيم حظوظهم من المتاع الدنيوي: (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾)(الكهف)؛ (ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾)(الكهف). لذلك فإن الاختبار الحقيقي

لاعتبار جدوى الصلاة كعبادة مقبولة عند الله تعالى، وكعمل اجتماعي صالح عند الناس، هو اختبار تجريبي يكون بتحقق أثرها في المجال الاجتماعي، وقد قال الله تعالى في ذلك: (أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا تَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾)(الماعون).

بهذا الاعتبار يظهر البعد الاجتماعي للصلاة، وللعلم المتعلق بها، وهي للأسف أبعاد غائبة، على الجملة، عن الصلاة كفعل اجتماعي، وعن فقهها الموروث. ويصدق ذلك بدرجات متفاوتة على بقية الشعائر التعبدية، فالتقوى المرجوة من عبادة الصوم مجال تحققها اجتماعي(شهوتي البطن والفرج)، وصدقة المال التي تطهّر وتزكّي تحقق ذلك في المجال الاجتماعي، والحج لا يكون مبرورا إلا إذا أدى بصاحبه إلى التجافي عن دار الغرور(الحياة الدنيا) بزينتها(المال والبنون)، والإنابة إلى دار الخلود(الآخرة). وحقيقة الأمر أن علم الأحكام الشرعية المتعلق بالشعائر التعبدية(فقه العبادات) هو علم محدود ومستقر وقتل بحثا، وليس هناك الكثير الذي يمكن إضافته إليه مهما تقدم الزمان، ولكن العلم المتعلق بالأبعاد الاجتماعية لهذه الشعائر، سواء في تحققها كعبادة، أو في آثارها، هو مجال للعلوم الاجتماعية بكر في مجمله وينتظر الاستكشاف. ولابد أن يأتي اليوم الذي تصبح فيه الصلاة والشعائر التعبدية الأخرى موضوعا للدراسة والتدريس والبحث العلمي في كليات الاقتصاد وغيرها من كليات العلوم الاجتماعية، من حيث هي ظواهر اجتماعية ذات آثار بعيدة المدى في جميع أوجه الاجتماع الإنساني المسلم. ومثل هذه الأبحاث ونتائجها العلمية سوف تكون

ذات أهمية بالغة في مراجعة وتصحيح الطريقة التي نقيم بها ديننا، ونؤدي بها شعائرنا، فلو أن نتائج البحث العلمي الاجتماعي أثبتت تفشي الفحشاء والمنكر في المجتمع لاقتضى ذلك استنفارا من الفقهاء لمراجعة أمر الصلاة فيه. ومدار الأمر كله في هذه القضية المنهجية هو أن الدين يبدأ بعلم من الوحي وينتهي بعمل، والعمل هذا هو تجريب في الواقع الاجتماعي لحقائق الدين التي جاء بها الوحي، وهذا التجريب، بما يؤدي إليه من تغيير في الواقع الاجتماعي المستهدف، وبما يوفره من بيانات ومعلومات اجتماعية وطبيعية، هو الذي يجعل علوم الأمة في المجال الاجتماعي، بما في ذلك الفقه، علوم ذات مكوّن تجريبي بالضرورة كالعلوم الطبيعية، مع مراعاة الاختلاف في طبيعة الظاهرتين، وما يقتضيه ذلك من تباين في طبيعة القوانين التي تحكم الطبيعة، والسنن التي تحكم الاجتماع الإنساني، ومن ثم اختلاف البيانات والإجراءات التجريبية المطلوبة لكل من الظاهرتين.

لذلك ليس مستغربا أن يكون المنهج العلمي التجريبي الذي تأسست عليه علوم الحضارة المعاصرة هو الوليد الشرعي للحضارة الإسلامية، ومن أكبر إسهاماتها للحضارة البشرية، كما يعترف بذلك علماء تاريخ العلوم الغربيين أنفسهم. يقول بريقولت: (إن الإغريق نظّموا وعمموا ونظّروا، ولكن الطرق الصبورة في الملاحظة الدقيقة والمطوّلة، ومنهج الاختبار بعيدة كل البعد عن طباع الإغريق...إن ما نسميه بالعلوم جاء نتيجة لمناهج جديدة في التجربة والملاحظة والقياس أدخلت إلى أوروبا بواسطة العرب. إن العلم الحديث هو أكبر إسهامات الحضارة الاسلامية)[1]. وعندما انحسر المنهج التجريبي عن حياة الأمة الإسلامية، مع انحسار حضارتها التوحيدية،

[1] - بروفيسور محمد عبد السلام: (The Future of Science in Islamic Countries"; Islam and The Future; Islamic Summit; Kuwait; 1987")

ذبل العلم لانقطاعه عن واقع الأمة، وأصبحت حياة الأمة كلها، أفرادا وجماعة، تسير بلا هدى لأن مبدأ "ولا تقف ما ليس لك به علم" لم يعد يُعمل به. ولما انتقل المنهج العلمي التجريبي إلى أوربا من خلال عملية تثاقف حضاري مع العالم الإسلامي، معلومة الزمان والمكان، إذا بالعلم الكوني يتنفس في أوربا، وإذا بالحضارة تدب الحياة في أوصالها هناك، ثم كان ما كان مما هو معلوم من أمرهم وأمرنا.

لذلك عرّفنا العلم التوحيدي تعريفا وظيفيا بأنه ذلك الذي (يحقق الإيمان في القلب، والعمل الصالح في الأرض)[1]، وبهذا التعريف لم تعد لدينا علوم شرعية وعلوم كونية، ذلك أن الشريعة في القرآن هي الدين كله لقول الله تعالى: (شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِىٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِىٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾). وربما لهذا السبب نجد أن كلمة علم ترد دائما في القرآن بصيغة المفرد ولا تجمع أبدا دلالة على أن العلم التوحيدي هو علم واحد، مهما تعددت مستوياته وتنوعت مجالاته؛ هو ذلك الذي يحقق الإيمان في القلب، والعمل الصالح في الأرض. ولما قال الله تعالى إنما يخشى الله من عباده العلماء لم يذكر من خصّوا أنفسهم بما يُسمّى بالعلوم الشرعية، وإنما ذكر علماء العلوم الكونية: (أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ

[1] - تعريفنا للعلم على حقيقته فهو: "اليقين بالحق في المعلوم"، في درجات اليقين الثلاث: مجرد اليقين؛ عين اليقين؛ حق اليقين.

وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٞ ٢٨)(فاطر).

والشريعة لغة هي موردُ الشاربةِ(الماء)؛ ولا يتحقق ذلك إلا بشرعة(الماء الكثير)، ومنهاج(طريق واسع) يوصل السائمة إلى مقصدها(الماء الكثير). وقد جاء في "التحرير والتنوير" لإبن عاشور ما يلي: (وَالشَّرِيعَةُ: الدِّينُ وَالْمِلَّةُ الْمُتَّبَعَةُ، مُشْتَقَّةٌ مِنَ الشَّرْعِ وَهُوَ: جَعْلُ طَرِيقٍ لِلسَّيْرِ، وَسُمِّيَ النَّهْجُ شَرْعًا تَسْمِيَةً بِالْمَصْدَرِ. وَسُمِّيَتْ شَرِيعَةُ الْمَاءِ الَّذِي يَرِدُهُ النَّاسُ شَرِيعَةً لِذَلِكَ، قَالَ الرَّاغِبُ: اسْتُعِيرَ اسْمُ الشَّرِيعَةِ لِلطَّرِيقَةِ الْإِلَهِيَّةِ تَشْبِيهًا بِشَرِيعَةِ الْمَاءِ قُلْتُ: وَوَجْهُ الشَّبَهِ مَا فِي الْمَاءِ مِنَ الْمَنَافِعِ وَهِيَ الرِّيُّ وَالتَّطْهِيرُ. والْأَمْرِ: الشَّأْنُ، وَهُوَ شَأْنُ الدِّينِ وَهُوَ شَأْن من شؤون اللَّهِ تَعَالَى). ومن هذا المعنى علمنا من القرآن الكريم أن الدين(الشريعة) هو شرعة(مقاصد)، ومنهاج(وسائل): (وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ **شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا**ۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٤٨)(المائدة). وبهذا المعنى أيضا فإن الدين(الشريعة)، كما ذكر القرآن الكريم، هو بناء يقام، وله أساس يتأسس عليه هو (تقوى الله تعالى ورضوانه): (شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ **أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ** وَلَا

تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾)(الشورى). ويتأكد هذا المعنى في قوله تعالى: (أَفَمَنۡ **أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ** عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ **أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ** عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾)(التوبة).

الدين، إذن، بنيان يقام وله أساس تربوي لابد أن يبدأ به أي مشروع إسلامي يبغي التحقق في الواقع الزماني والمكاني، ومن ثم فإن الشريعة(الدين) ليست هي مجرد أحكام شرعية تطبق كما هو شائع في الاصطلاح وفي خطابنا الشرعي في هذا الزمان، لأن الأحكام الشرعية، والعمل الإنساني الملتزم بها، هي مجرد وسيلة من وسائل الشارع، وإن كانت الأهم، لتحقيق مقاصده في الخلق، والمقاصد مقدمة وحاكمة على الوسائل بداهة. وشتان بين مفهوم إقامة الدين ودلالاته النظرية والتطبيقية وبين مفهوم تطبيق الشريعة ودلالاته النظرية والتطبيقية. كذلك فإن زوايا النظر العلمي التي ينبغي أن تحيط بالفعل الاجتماعي وتكيّفه بما يحقق مقاصد الشريعة في الحياة تتجاوز بكثير علم الأحكام الشرعية(الفقه)، وما زالت علوم الدين الاجتماعية هذه تنتظر التأسيس لتؤدي دورها الضروري في إقامة الدين.

نخلص من ذلك إلى أن ثورتنا المعرفية ينبغي أن تتصوب نحو دراسة الكون، بشقيه الطبيعي والاجتماعي، استيفاءً لأدلة الإيمان المتجددة أبدا، وتحقيقا للعمران بشروط الزمان والمكان، مؤسسة فلسفتها العلمية على قاعدة الوحي المعرفية. ولهذه الثورة المعرفية مقتضيات كثيرة حتى تتحقق وتؤتي ثمارها، فهناك عوائق يجب أن تزال، وبنيات تحتية يجب أن تقام.

الثورة العلمية لابد أن تسبق لتمهد للثورتين التاليتين لها، ولما كان القرآن الكريم هو علم من الله تعالى إلى الإنسان فإننا نجد أن جل هذا العلم، لاسيما ما تعلق منه بشواهد الإيمان بالله تعالى وما تعلق منه بعمران الأرض، ينصرف إلى الكون الذي يحيط بالإنسان، ويُطالَب الإنسان الذي يحتاج إلى مزيد من أدلة التوحيد بعد القرآن، ليؤمن أو ليطمئن قلبه، أن ينظر في هذا الكون الممتد للحصول على تلك الأدلة: (قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٠)(إبراهيم)؛ (وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٦٠)(البقرة)؛ (قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١)(يونس).

ومفهوم النظر الكوني في القرآن الكريم هو منهج علمي يوصل إلى العلم المتعلق بالحق الذي خلق الله به السماوات والأرض، وهو منهج يفترض وجود العقل في الإنسان(السمع، البصر، الفؤاد، القلب)، وهو ذات العقل الذي قام به تكليف الله تعالى للإنسان بإقامة الدين في الأرض المستخلف فيها. وهذا الاستخلاف بمضامينه القرآنية يتأسس عليه سوق يوم القيامة، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات، حيث الربح والخسارة، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز.

والمنهج الذي أسست عليه تعاملي مع القرآن الكريم كباحث هو ما شاء الله تعالى أن نحيط به من علمه، تدبرا في القرآن الكريم، بحثا عن رؤية كلية للعالم تربط بين الخالق من جهة وبين الخليقة من جهة أخرى، مع تمييز لموقع الإنسان في هذه العلاقة. إن منهجي العلمي يرتكز، أولا؛ على المنهج الاستقرائي للإتيان بالمقدمات من القرآن الكريم، ثم، ثانيا؛ توظيف الاستنباط العقلي في البناء النظري وفي الوصول إلى النتائج. وأرى أن هذا هو المنهج الصحيح في التعامل مع القرآن الكريم كمصدر للعلم الكوني التجريبي، بشقيه الطبيعي والاجتماعي، سواء لأغراض الإيمان، أو العمران، حيث نؤسس على رؤية القرآن للعالم نظرياتنا وفرضياتنا العلمية، سواء استقيناها من القرآن الكريم مباشرة، أو من الكون بضوابط منهجية من القرآن الكريم، ثم نتحقق من صدقها وجوديا باستخدام المناهج التجريبية المناسبة، فإذا استيقنّا من صدق الفرضية كنا "كأم موسى ترضع طفلها وتأخذ أجرها"، من حيث تثويرنا للطاقات العلمية التي يذخر بها القرآن الكريم، ومن حيث حصادنا عائدا معرفيا في المجال الكوني. وإن لم نبلغ اليقين في الإثبات حافظنا على نظريتنا، وثابرنا في تحسينها بنائيا، وتمحيصها تجريبيا، أما إن استيقنا من دحضها لم يقدح ذلك في صحة الوحي، بل يقدح في صحة فهمنا له، أو صحة مناهجنا في بناء النظريات واستخلاص الفرضيات منه، أو في صحة مناهجنا التجريبية، أو في كل أو بعض من ذلك. إن القرآن الكريم، بوصفه علم من الله تعالى خالق العالم، هو وحده العاصم للعلم البشري من الزلل المنهجي، والإنزلاق نحو النسبية المعرفية التي انتهت إليها التجربة العلمية الغربية، بعد أن تم تحريف ما سبق من كتب سماوية. إن العقل واللغة البشرية اللذين يوظفهما الإنسان لدراسة الوجود، والتعبير عن حقائقه، لا يكفيان وحدهما لتمكين الإنسان من أساس يقيني من التصورات الوجودية يبني عليه معرفة موثوقة ليؤسس عليها حياة يطمئن بها.

إن الثورة المعرفية التي ندعو إليها هي ثورة تبدأ ببناء "رؤية القرآن للعالم" التي يؤول أمرها إلى رؤيتين فرعيتين للعالم هما "رؤية العالم الدنيوية"، و"رؤية العالم التوحيدية"، ثم تبيان أن "رؤية العالم الغربية" و"نظامها المعرفي الوضعي" الذين تقوم عليهما الحضارة الغربية اليوم إنما هما مرحلة من مراحل التجلي التاريخي لرؤية العالم الدنيوية المشتقة من رؤية القرآن للعالم. ثم تأسيسا على المنهج القرآني في التصديق والهيمنة نقوم بنقد رؤية العالم الدنيوية الغربية ونظامها المعرفي الوضعي، تمهيدا للثورة المعرفية(Paradigm Shift). ولكي تكتمل الثورة المعرفية فلابد من بناء رؤية العالم التوحيدية ونظامها المعرفي، إنطلاقا من القرآن الكريم كمصدر للعلم وفلسفته، لتتصوب نحو دراسة الكون، الطبيعي والاجتماعي، كدليل إيمان بالله الواحد، ثم باعتباره مجالا مسخرا ليبلو الله تعالى الناس فيه أيهم أحسن عملا. والعلاقة بين الوحي وبين الكون كمصدرين للعلم الإنساني علاقة تفاعلية، يثري العلم التوحيدي المتحصل من تفاعلهما فهم الإنسان لكليهما.

كتابنا هذا يأتي في إطار الثورة المعرفية التي لابد أن تسبق لتمهد للثورتين التاليتين لها، ولما كان القرآن الكريم هو علم من الله تعالى إلى الإنسان فإننا نجد أن جل هذا العلم، لاسيما ما تعلق منه بشواهد الإيمان بالله تعالى وما تعلق منه بعمران الأرض، ينصرف إلى الكون الذي يحيط بالإنسان، ويُطالَب الإنسان الذي يحتاج إلى مزيد من أدلة التوحيد، بعد القرآن، ليؤمن أو ليطمئن قلبه، أن ينظر في هذا الوجود الممتد للحصول على تلك الأدلة. ومفهوم النظر الكوني في القرآن هو منهج علمي يوصل إلى العلم المتعلق بالحق الذي خلق الله به السماوات والأرض، وهو منهج يفترض وجود العقل في الإنسان(السمع، البصر، الفؤاد، القلب)، وهو ذات العقل الذي قام به تكليف الله تعالى للإنسان المستخلف في الأرض. وهذا

الاستخلاف بمضامينه القرآنية يتأسس عليه سوق يوم القيامة، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات، حيث الربح والخسارة، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز.

الفصل الثاني

المفاهيم المفتاحية

لعل أوفق بداية لهذا البحث هي أن نعرّف باقتضاب بعض المفاهيم التي ننطلق منها وهي: الحق، الظن، اليقين، العلم، المعرفة.

1- الحق

جاء في تعريف الحق في كتاب لسان العرب لإبن منظور ما يلي: "الحق نقيض الباطل، وحق الأمر يحقه حقاً، وأحقه: كان منه على يقين. والحق: من أسماء الله عز وجل، وقيل من صفاته".

فهنا إذن ثلاث قضايا، قضية وجودية، قضية معرفية، وقضية منهجية:

أولاً؛ القضية الوجودية وهي تتعلق بالوجود المستقل للحق، أي وجود الموضوع محل النظر وحقيقته كما هي عند الخالق تبارك وتعالى، لا كما يتوهمها الناس. والتحقيق في قولنا هذا هو أنّ جميع الأشياء التي تقع في عالم الشهادة(مادية، حيوية، اجتماعية، معنوية)، وتلك التي تقع في عالم الغيب خلقها الله تعالى بالحق، لأنه هو الحق، أي أنها تقع بمقتضى الحكمة التي من أجلها خُلقت لتؤدي دورها في إطار الحكمة الكلية من خلق السموات والأرض وما بينهما. وهكذا فإنّ أي شيئ يكون مثار اهتمام البشر وموضع دراستهم، فإنّ الحقيقة التي يطلبونها من دراسته إنما هي حلقة في سلسلة الحق الذي أوجد ذلك الشيئ، ويربطها ذلك الحق بالحكمة الكلية من الخلق. ولكن بينما الظواهر عند الله تعالى تتم في إطار الحكمة

الكلية من خلق الكون والحياة، ومن ثم تكون حقيقتها عنده في هذا الإطار، نجد أنّ الحق الذي يطلبه البشر من دراستهم لهذه الظواهر يكون عادة جزئياً ومحدوداً، إما لأنّ الحكمة الكلية من الخلق لا تعنيهم، ومن ثم لا تشكل مرجعية لدراستهم، وإما لأنّ ما يستطيعون إدراكه منها محدود بحدود القدرة البشرية. لذلك نستطيع أن نقول إنّ الإحاطة بكل جوانب الحق في أي ظاهرة من الظواهر، أو قضية من القضايا أمر اختص به الله تعالى، وأنّ ما يدرك البشر من الحق عن طريق كسبهم من العلم يظل قليلا، ويتسع بقدر اتساع إدراكهم للحكمة الكلية من الخلق، وبقدر تجذّر منهجيتهم المعرفية في تلك الرؤية الكونية الربانية. ونسوق فيما يلي مجموعة من آيات القرآن الكريم التي تثبت وجود الحق، وأنه الذي قامت به السموات والأرض، وأنه مطلوب العلم:

(1) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ 62﴾(الحج)؛

(2) ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ 85﴾(الحجر)؛

(3) ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ 71﴾(المؤمنون)؛

(4) ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ 53﴾(فصلت)؛

(5) ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ 39﴾(الدخان)؛

(6) ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ 26﴾(ص)؛

(7) ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا 33﴾(الإسراء)؛

(8) ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ 51﴾(يوسف)؛

(9) ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى 13﴾(الكهف)؛

(10) ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ 62﴾(المؤمنون)؛

(11) ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ 6﴾(سبأ)؛

(12) ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ 31)(فاطر)؛

(13) ﴿فَذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ 32﴾(يونس).

والحق هو أساس الوجود، لأنّ الله تعالى خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق، والحق هو مبتغى العلم، فلا علم في غياب الحق. والعلم إنما أصبح ممكناً لأن الحق موجود في كل ظاهرة من الظواهر، سواء كانت مادية، أم حيوية، أم إجتماعية، أم غير ذلك. فكل ظاهرة موجودة، يكون وجودها هو في ذاته حق، لأنه من خلْق الله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ

يُنفَخُ فِي الصُّوَرِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ 73﴾(الأنعام)؛ ﴿قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ 16﴾(الرعد)؛ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ 96﴾(الصافات)، ثم لها حقيقة أو حقائق تعلم بوسائلها المناسبة. ولا نعني هنا الحقيقة المطلقة المتعلقة بالظاهرة، والتي لا يعلمها إلا الله، وإنما نعني الحقيقة الجزئية المحدودة، التي يبحث عنها الإنسان في الظاهرة المعينة، فذرّة الماء، مثلاً، لها عدة حقائق كل واحدة منها هي حق في ذاتها، ومعلومة لدينا إما بالتجربة، وإما بإخبار الوحي لنا بها. فهناك حقيقة تركيبها الكيميائي وهو (H_2O)، وهناك حقيقة أنها تدخل في تركيب كل شيء حي: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ 30﴾(الأنبياء)، وحقيقة أكبر تتعلق بكون أنّ الماء كان يوماً ما يحمل عرش الرحمن: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ 7﴾(هود). وهناك حقائق أكبر عن ذرة الماء لا يعلمها إلا الله. وما قلناه عن ذرة الماء يصدق على كل شيء خلقه الله تعالى، بما في ذلك أعمال الناس: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ 96﴾(الصافات)، وهو سبحانه الذي سوف ينبئنا يوم القيامة بحقيقة ما كنا نعمل في هذه الدنيا.

ثانياً، هناك القضية المعرفية، أي إمكان وجود العلم بالحق المذكور في القضية الوجودية أعلاه. ونستطيع أن نجزم من القرآن الكريم أنه ما دام الحق موجوداً فإن العلم به موجود أيضاً. ولا علاقة لوجود العلم بإمكان تحصيله من قبل الناس، فهذه قضية تبحث في "**ثالثاً**"، ففي مثالنا السابق

عن ذرة الماء تأكد لنا وجود علم يتعلق بثلاث من حقائقها، بعضه تحصلنا عليه عن طريق النظر، وبعضه عن طريق الخبر.

ولأنّ الله تعالى خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق، وجعل العلم سبيلاً وحيدا للوصول إلى الحق، فإنّ العلم بجميع الظواهر، في كلياتها وجزئياتها، سواء كانت في عالم الغيب أو الشهادة، من صفاته سبحانه وتعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ 14﴾(الملك)؛ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا 12﴾(الطلاق)؛ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ 3﴾(سبأ). بل إنّ هذا العلم اليقيني بحقيقة الظواهر مسجل في كتاب مبين في الملأ الأعلى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ 75﴾(النمل)؛ ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ 61﴾(يونس).

ولكن هذا العلم اليقيني بحقيقة الظواهر والأشياء التي تثير اهتمام البشر، وتدعوهم إلى البحث العلمي، ليس متاحاً كله لهم، لا في كلياته ولا في جزئياته، بل ينزل الله تعالى منه بقدر على من يشاء من عباده بما تقتضيه حكمته: ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء 255﴾(البقرة)؛ (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ 21﴾(الحجر).

فالعلم بالحقيقة الموضوعية للظواهر متاح للبشر بدرجات متفاوتة، ويمكن تحصيله إما من مصادره التي جعلها الله تعالى مرجعاً للعلم البشري في عالم الشهادة، وهي الوحي(القرآن، السنة) والكون، وإما بالاطلاع عليه في الكتاب المبين الذي أودع الله فيه ذلك العلم. ومصدرية الوحي والكون

هي الأساس للعلم البشري، وسوف نعرض لذلك في موضعه من هذا البحث إن شاء الله.

وهذا الذي ذكرناه يصدق على الظاهرة الاجتماعية بصورة أخص، ذلك أنها، دون غيرها من الظواهر المعروفة للبشر، تقوم على سلوك ظاهر ودوافع باطنة تخفى عادة على الباحث العلمي، بل إنها لتدق وتخفى حتى على صاحبها، ولكن الله، الذي يعلم السر وأخفى، يحيط بالظاهر والباطن من أفعال الناس، ومن ثم تسجل حقيقة الفعل والظاهرة الإجتماعية عنده كما هي: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ 52 وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ 53﴾(القمر)؛ ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ61﴾(يونس)؛ ﴿اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا 14﴾(الإسراء)؛ ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ 62﴾(المؤمنون)؛ ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا 49﴾(الكهف)؛ ﴿أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ 5﴾(هود).

بل إنّ الله تعالى يخبرنا أنّ أفعال البشر ترصد وتسجل على حقيقتها لحظة بلحظة من قبل الملائكة وهي تقع في الزمان والمكان في عالم الشهادة: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ 10 كِرَامًا كَاتِبِينَ 11 يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ

12﴾(الإنفطار)؛ ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ 21﴾(يونس)؛ ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ 80 ﴾(الزخرف).

إذن فكما أنّ البشر يرصدون الظواهر الإجتماعية التي تقع في عالم الشهادة، ويحللونها ثم يصلون فيها إلى نتائج تمثل جهدهم المعرفي في الوصول إلى الحق في تلك الظواهر، فإن ملائكة الرحمن أيضاً يرصدون ذات الظواهر، وما يكتبونه عنها يمثل حقيقتها اليقينية. ويبقى السؤال: هل النتائج التي يصل إليها البشر من خلال منهجيتهم البحثية يمكن أن تسمى حقاً، والمقولات المعبرة عنها تسمى علماً، إذا ما خالفت تلك التي سجلتها الملائكة عن نفس الظاهرة فيما أسماه الله تعالى "كتاب مبين"؟ فمثلاً ظاهرة اختفاء سيدنا عيسى، عليه السلام، يقدم القرآن تفسيراً لها جد مختلف عن ذلك الذي يقدمه علماء المسيحية، وهذا يعني أنّ ما رصدته وسجلته الملائكة عن ذلك الحدث في الكتاب المبين يختلف تماماً عما رصده وسجله المسيحيون في كتبهم، فأيهما أصاب الحق، وأيهما قال علماً؟ وثمة سؤال آخر، وهو: إذا سلمنا أنّ الحق هو ما كان عند الله كذلك، وأنّ العلم هو ما عبر عن ذلك الحق، فكيف يستيقن البشر أنّ ما توصلوا إليه من نتائج في أبحاثهم هو الحق المتعلق بما يبحثون عنه، وأنّ مقولاتهم تعبر تماماً عن ذلك الحق، ومن ثم فهي علم؟ بعض الإجابة عن هذا السؤال والذي سبقه نعرض لها في ثنايا هذا البحث إن شاء الله.

ثالثاً: هناك القضية المنهجية، أي إمكان حصول الإنسان على العلم المتعلق بالحق، كما ورد في القضيتين الأولى والثانية. والقضية المنهجية هي أعقد قضايا العلم ولا شك، ذلك أنّ القضيتين الأوليين قضيتان موضوعيتان، تستقلان بوجودهما عن تدخلات البشر، ويمثلان

الهدف الذي يسعى العالِم للوصول إليه، بينما المنهاج والمنهجية هما الطريق وخارطته اللذان لابد منهما للوصول إلى الهدف. ولما جعل الله تعالى الحق أساس الوجود، وجعل العلم به ممكنا، وكلّف الناس بتحصيل ذلك القدر من العلم الذي تتحقق به عبوديتهم وخلافتهم له في أرضه، كان لابد أن يجعل له منهاجاً يوصل الناس إليه، وإلا كان تكليفاً بما لا يطاق، وهو ممتنع. لكن أي طريق قبل أن يسلكه السالك لابد له من خارطة تحدد طبيعته وتبين معالمه، وتحدد وجهته وطوله، وهل يوصل إلى الهدف، وهل هو أفضل الطرق من حيث المسافة والأمن، وهل توجد على طوله خدمات ومعينات تحفز وتسهّل على سالكه سفره..إلخ. إنّ خارطة الطريق هذه، رغم أهميتها القصوى، إلا أنها لا تكفي ابتداءً لتبيان كل تفاصيل الطريق، إذ لابد من سلوكها لتُعلَم كل منعرجاتها ومتاهاتها وما يتفرع عنها من سبل قد تُشْكِل على السالك، وقد تكون هناك مفاجآت تظهر في حينها..إلخ. بل إنّ القرآن الكريم يبيِّن لنا أنّ الناس قد يؤثرون سبلا أكثر التواءً وتعقيدا، للوصول إلى الهدف، على سبيل أيسر منها خبروه وساروا عليه من قبل، ظلما لأنفسهم باتباع الهوى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ 18 فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ 19﴾(سبأ).

إذن الطريق(المنهاج) الموصل للعلم المفضي إلى الحق موجود، ولكن لما كان وضع خارطة الطريق(المنهجية) والسير في هذا الطريق(البحث العلمي)، كلّها أو جلّها، عمل يقوم به السالك(العالِم)، ويعتمد من ثم على خصائص ذلك السالك، أوشك أن يكون أمر المنهاج ومنهجيته

في المجال المعرفي جهداً بشرياً خالصاً، لأنه يعتمد على السمع والبصر والفؤاد، وهي وسائل الإدراك التي خلق الله تعالى بها الإنسان:﴿وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ 78﴾(النحل)؛ ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً 36﴾(الإسراء).

ولا سبيل إلى خلاص هذه الوسائل الإدراكية من تأثير العادات والمعتقدات والقيم والأهواء، وكل أنواع التحيزات البشرية، إلا بتجرد عزيز المنال. بل إنّ رؤية العالم التي يستبطنها الناس تؤثر مباشرة في تخيرهم للظواهر التي تثير اهتمامهم، وفي تفسيرهم لها، ونوع الحقائق التي يبحثون عنها، ومن ثم نوع العلم الذي يطلبون تحصيله، فالتحيز صفة ملازمة للبشر كما يقول المسيري. ثم إذا تخلص المنهاج ومنهجيته من ركام الأهواء والشهوات واجهتهما محدودية القدرات والوسائل الإدراكية عند البشر، وعجزهم عن الإحاطة بكل الكليات والجزيئات التي يقوم عليها الكون بعوالمه المختلفة. وهكذا يظل الكسب العلمي للبشر محدوداً مهما تراكم؛ وظنياً مهما تعاظم؛ بل إنّ التوجهات المعرفية لما بعد الحداثة في الغرب تنكر إمكان العلم بالحق الذي يقوم عليه الوجود من قبل البشر، ومن ثم جعلت رؤى العالم التي تتنافس في تفسير هذا الوجود كلها سواء، وليس لأي منها مصداقية تتفوق بها على غيرها، ومن ثم فالأمر نسبي ويجب السماح لها جميعا بالتعبير عن نفسها، والتسامح مع أولئك الذين يرون العالم من خلالها.

2- اليقين:

هوالعلم وإزاحة الشك، وتحقيق الأمر. وفي الاصطلاح: الإعتقاد الجازم المطابق الثابت، أي الذي لا يزول بتشكيك المشكك. ونورد فيما يلي مجموعة من الآيات التي ورد فيها لفظ اليقين، ونتبعها بكلام نفيس للشيخ الشعراوي في الدلالة المفهومية التي تستقى من التوظيف القرآني للفظة "اليقين" في تلك الآيات.

1- ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا 157﴾(النساء)؛

2- ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ 99﴾(الحجر)؛

3- ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ 14﴾(النمل)؛

4- ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ32)(الجاثية)؛

5- ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ 95﴾(الواقعة)؛

6- ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ 51﴾(الحاقة)؛

7- ﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ 47﴾(المدثر)؛

8- ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ 5 لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ 6 ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ 7﴾(التكاثر)؛

يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي عن معنى "اليقين" في معرض تفسيره للآية الأولى:

"ويوضح الحق سبحانه وتعالى: لم يتيقنوا أنهم قتلوا عيسى ابن مريم، ولكنهم شكوا فيمن قُتل، فلم يعرف المتربصون لقتله أقتلوا عيسى أو تطيانوس أو سرخس؟

والحق سبحانه جاء هنا بنسبتين متقابلتين، فبعد أن نفى سبحانه نبأ مقتل عيسى ابن مريم قال: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا 157﴾(النساء). والنسبة الأولى المذكورة هنا هي الشك، وهو نسبة يتساوى فيها الأمران. والنسبة الثانية هي اتباعهم للظن، وهو نسبة راجحة. لقد بدأ الأمر بالنسبة إليهم شكاً ثم انقلب ظناً.

وينهي الحق ذلك بعلم يقيني﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً﴾، وسبحانه ينفي بذلك أنهم قتلوه يقيناً، واليقين – كما نعلم – هو الأمر الثابت المعقود في الواقع والأعماق بحيث لا يطفو إلى الذهن ليناقش من جديد أو يتغير، وله مراحل هي: مرحلة العلم، واسمها "علم اليقين"، ومرحلة العين، واسمها "عين اليقين"، ومرحلة الحقيقة، واسمها "حق اليقين".

وعندما يخبرنا واحد من الناس أن جزءاً من نيويورك اسمه «مانهاتن»، وأن مانهاتن هذه هي جزيرة يصل تعداد سكانها إلى عشرة ملايين نسمة، وفيها ناطحات سحاب، وجاء هذا الخبر ممن لا نعرف عنه الكذب فيسمعه من لم يَر نيويورك، فيصير مضمون الخبر عنده علماً متيقناً؛ لأنّ الذي أخبر به موثوق به. وإن جاء آخر ووجه للسامع عن نيويورك دعوة لزيارتها ولبى السامع الدعوة وذهب إلى نيويورك، هنا تحول الخبر من «علم يقين» إلى «عين اليقين». وإن جاء ثالث وصحب السامع إلى قلب نيويورك وطاف به في كل شوارعها ومبانيها، فهذا هو «حق

اليقين». وأسمى أنواع اليقين هو «حق اليقين»، وقبلها «عين اليقين»، وقبل «عين اليقين» «علم اليقين» .

وحينما عرض سبحانه المسألة قال: ﴿كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليقين لَتَرَوُنَّ الجحيم ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليقين﴾(التكاثر:3–7) هو سبحانه يعطينا علم اليقين، ويصدقه المؤمنون بهذا العلم قبل أن يروه، وسيرى المؤمنون وهم على الصراط النارَ وذلك عين اليقين. أما مسألة دخول الذين يرون الجحيم إليها فأمر سكت عنه الحق؛ لأنّ هناك من يدخل الجنة ولا يدخل النار، وهناك من يدخل النار ولا يدخل الجنة. والكافرون بالله هم الذين سيرون الجحيم حق اليقين. ويأتي «حق اليقين» في موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ المكذبين الضآلين فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ اليقين﴾(الواقعة: 92– 95).

فكل مكذب ضال سينزل إلى الحميم ويصلى الجحيم ويعاني من عذابها حق اليقين. إذن فقوله الحق عن مسألة قتل عيسى ابن مريم: (وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً) يصدقه الذين لم يشاهدوا الحادث، تصديق علم يقين لأنّ الله هو القائل. والذين رأوا الحادث عرفوا أنهم لم يقتلوه ولكنهم شكوا في ذلك. وأما من باشر عملية القتل لإنسان غير عيسى عليه السلام فهو الذي عرف حقيقة اليقين" أه.

والذي أراه أن اليقين هو درجات في العلم، فليس من رأى كمن سمع، وليس من باشر وخَبِر كمن رأى وسمع. فعلم "اليقين" هو أول درجات العلم، وهو ظن راجح(ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾)(البقرة)،

وهو علم خبري يعتمد على صدق المخبِر لدى المخبَر، يليه علم "عين اليقين" حيث يرى المخبَر حقيقة المخبرِ عنه بأم عينه، فلو أن عالما، مؤتمن لدى جماعته العلمية فيما يقول بشأن نتائج أبحاثه العلمية، أخبر بأنه توصل من خلال أبحاثه إلى نتيجة علمية طبيعتها كذا، لكان ذلك في حق جماعته العلمية علم يقين مبني على ظنهم الراجح في صدق ما يخبر به زميلهم. ولكن إن أرادوا أن تطمئن قلوبهم أكثر على خبر زميلهم فيلزمهم علم "عين اليقين"، أي أن يباشروا تجربته العلمية بأنفسهم ويروا بأم أعينهم تطابق نتائجهم مع ما أخبرهم به. ولعل في طلب الخليل إبراهيم، عليه السلام، أن يريه الله تعالى كيف يحيي الموتى دليل آخر على ما ذهبنا إليه بشأن علم "عين اليقين": (وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾)(البقرة)، فهو على يقين بأن الله تعالى يحيي الموتى علم خبر ممن آمن به، ولكنه أراد أن يترقى إلى علم "عين اليقين" فيزداد إيمانا مع إيمانه، وقد كان له ذلك.

وأعلى درجات العلم هي علم "حق اليقين" حيث تتلاشى المسافة الفاصلة بين العلم والحق، فيصبح طالب الحق جزءا من الحق الذي يطلبه، ولعل مثال ذلك قول الله تعالى: (فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا

لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٩٥﴾)(الواقعة)، فيصبح أهل الجنة بعضاً من الجنة، وأهل النار بعضاً من النار، ولم تعد هناك حاجة إلى العلم بهذا الحق.

3- الظن

"هو الحكم بأحد النقيضين مع تجويز الآخر. أو هو إدراك يحتمل النقيض. وقد يطلق الظن بمعنى الوهم. وقد يطلق على ما يقابل اليقين، أي الإعتقاد الذي لا يكون جازماً".

4- العلم

نبدأ بإعطاء نماذج من تعريفات بعض علماء المسلمين لمفهوم العلم ثم نعطي تعريفاً من عندنا نرجو أن يجمع بين هذه التعريفات:(3)

* يقول أبو علي الجبائي: (العلم هو اعتقاد الشيء على ما هو به)؛
* وقال أبو الحسن الأشعري: (العلم ما يعلم به، أو ما يصير الذات به عالماً)؛
* وقال أبو بكر الباقلاني: (العلم هو معرفة المعلوم على ما هو به). وهذا التعريف هو ما ارتضاه إمام الحرمين الجويني في كتابه الإرشاد؛
* وقال القاضي عبد الجبار: (العلم هو المعنى الذي يقتضي سكون نفس العالم إلى ما تناوله)؛
* وقال أبو إسحق الإسفراييني: (العلم تبين المعلوم)؛
* وقال أبو بكر بن فورك: (العلم ما يصح من المتصف به إحكام الفعل وإتقانه)؛
* وقال الراغب الأصفهاني: (العلم إدراك الشيء بحقيقته).

وتعريف العلم الذي اختاره صاحب هذا البحث هو: ***اليقين بالحق المبتغى في المعلوم.***

وينبني هذا التعريف على ثلاث قضايا تعرضنا لها سابقاً عند نقاشنا لمفهوم الحق، وهي:(4)

1/ الوجود المستقل للحق موضوع العلم؛

2/ يقين العالم بتحصيل هذا الحق(context of discovery)؛

3/ البرهان بصدق هذا اليقين(context of justification).

سبق أن قلنا إنّ العلم جوهر يستقل بوجوده عن الإنسان العالِم، لذلك فإنّ اليقين يتعلق بالمنهج الذي يتبعه العالم للوصول، أولاً؛ إلى العلم الذي يطلبه، ومن ثم درجة اطمئنانه القلبي إلى ما توصل إليه، فقد يكون ظناً راجحاً، وقد يكون يقيناً عيانا رافعاً للظن. والفرق بين درجات اليقين الثلاث بالنسبة للعالم هو الفرق في المسافة التي تفصل بين العلم والحق المبتغى من العلم، فعلم عين اليقين يقترب بالإنسان درجة من الحق قياسا إلى مجرد علم اليقين، بينما في مستوى حق اليقين تتلاشى المسافة بين العلم والحق فيصبح العلم حقا، والحق علما بالنسبة لصاحبه.

وهذه المرحلة من البحث العلمي تسمى في فلسفة العلوم مرحلة الكشف والإلهام(context of discovery)، حيث يظل العلم خاصا بصاحبه. ثم، ثانياً؛ للوصول إلى إقناع غيره من العلماء بصدق يقينه هذا حيث يلزمه الدليل والبرهان، وتسمى هذه المرحلة في فلسفة العلوم مرحلة التبرير(context of justification). وقد يظل العلم مقتصرا على صاحبه لملابسات تتعلق بطبيعة العلم، أو العالِم، أو المنهاج.

العلم، كما عرّفناه سابقاً، له في القرآن مكان علي وشأن عظيم، فقد وصف الله سبحانه نفسه بأنه عليم وعالم وعلاّم، وجعل العلم هو الفيصل

في اتخاذ المواقف والخيارات العقدية وغيرها: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً 36﴾(الإسراء)؛ ﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا 157﴾(النساء)؛ ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ 119﴾(الأنعام)؛ ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ 148﴾(الأنعام). كذلك قصر الله سبحانه وتعالى تقواه وخشيته على العلماء من عباده، لا سيما الراسخون منهم في العلوم الكونية، ورفعهم درجات على من سواهم من عباده المؤمنين: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ 27 وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ 28﴾(فاطر)؛ ﴿ قَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ 27﴾(النحل)؛ ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ 11﴾(المجادلة). كذلك وصف الله سبحانه وتعالى القرآن بأنه علم: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ37)(الرعد)؛ ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ 61﴾(آل عمران).

5- المعرفة

نبدأ تقصينا للمفهوم الذي تحمله هذه الكلمة الشائعة (معرفة) بإيراد عدد من الآيات القرآنية التي وردت فيها، ثم نعقب ذلك بشواهد من تعريفات لهذا المفهوم من قبل عدد من علماء المسلمين، ثم نورد ما بدا لنا

من أبعاد أخرى لمفهوم المعرفة مما لم يؤكده الآخرون، ونختم بمحاولة لتوضيح العلاقة بين "العلم" و "المعرفة":

(1) ﴿وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ 30﴾(محمد)؛

(2) ﴿وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ 58﴾(يوسف)؛

(3) ﴿وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ 89﴾(البقرة)؛

(4) ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ 83﴾ (المائدة)؛

(5) ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ 72﴾(الحج)؛

(6) ﴿لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ 273﴾(البقر)؛

(7) ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ 93﴾(النمل)؛

(8) ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ 69﴾(المؤمنون)؛

(9) ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ 146﴾(البقرة)؛

(10) ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ 46﴾(الأعراف)؛

(11) ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ 83﴾(النحل)؛

(12) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا 59﴾(الأحزاب).

جاء في "لسان العرب" لإبن منظور عن المعنى اللغوي للمعرفة ما يلي:

"عرف؛ العرفان: العلم؛ قال ابن سيدة: وينفصلان بتحديد لا يليق بهذا المكان. والتعريف: الإعلام؛ والتعريف أيضاً إنشاد الضالة...عرّف فلان الضالة، أي ذكرها وطلب من يعرفها، فجاء رجل يعترفها، أي يصفها بصفة يُعلم أنه صاحبها. وفي حديث ابن مسعود: فيقال لهم هل تعرفون ربكم؟ فيقولون: إذا اعترف لنا عرفناه، أي إذا وصف نفسه بصفة نحققه بها عرفناه.

والمعارف: الوجوه. والمعروف: الوجه،لأن الإنسان يعرف به. والمعروف: ضد المنكر. والعرف ضد المنكر. والعرف والعارفة والمعروف واحد: ضد النكر، وهو كل ما تعرفه النفس من الخير وتبسأ به وتطمئن إليه".

جاء في كتاب "العلم والإيمان" للبروفسير إبراهيم أحمد عمر عن المعرفة ما يلي: "من هذا أخلص إلى أن المعرفة ليست علماً خالصاً ولا إيماناً خالصاً، وإنما هي إدراك يجمع بين العلم والإيمان. وأوضح ما يكون الأمر عندما نقول إنّ موضوع العلم شاهد وموضوع الإيمان غائب وموضوع المعرفة شاهد غائب. ولأن إدراك الشاهد(العلم) يؤدي، خاصة عند الإنسان المعافى ذي الخبرة والتجربة، إلى إدراك الغائب(الإيمان) وفي وقت وجيز، فإن أكثر إدراك الإنسان معرفة. ولأن المعرفة إدراك يخلط العلم بالإيمان فهي لا تجوز في حق الله سبحانه وتعالى– عالم الغيب والشهادة – الذي لا يجوز في حقه الإيمان"(6).

يقول الدكتور محمد مجذوب محمد صالح عن المعرفة: "ومن ثم تصل إلى تقرير أن مفهوم المعرفة في السياقات السابقة يمكن أن يعرف على أنه صفة لحالة عقلية تحصل للإنسان في حالة تعرضه لمؤثر خارجي عنه، بعبارة أخرى أن المعرفة حالة ووضع سلبي يتبع حدوث وقائع في العالم الخارجي للإنسان فتحصل له المعرفة عن طريق العقل بواسطة واحدة من الحواس، أو أكثر بدليل وجود الفعل رأى واشتقاقاته في الآيات، فالمعرفة على هذا حال تحصل للإنسان بعد أن يلقي النظر إلى الخارج أو بواسطة إحدى الحواس الأخرى، فالمعرفة إذن سلبية منفعلة لا إيجابية فاعلة كما تقرر في حالة العلم فهي حالة تابعة ومتغيرة بتغير المحسوسات والمعاني الجزئية وهي درجة ملاحظة الوقائع. كما لنا أن نقرر أن المعرفة وضع يسبق حالة العلم ويهدف إلى ملاحظة الوقائع التي

يقدمها الإدراك الحسي العادي من موضوعات، فهي نقطة الابتداء للبيانات التي توصل إلى حالة العلم فيما بعد". [1]

أورد المعهد العالمي للفكر الإسلامي في مستلته عن المفاهيم عدة تعريفات لمفهوم المعرفة لعدة علماء نقتطف منها الآتي:

يلخص الدكتور جعفر عباس حاجي مفهوم المعرفة في قوله:

"يمكننا القول بأن المعرفة هي العملية الإدراكية للأشياء أو الموضوعات التي تقع خارج الذهن البشري على حقيقتها، أي حصول العلم بالأشياء. وتنطوي هذه العملية العقلية على عدة عمليات، تتمثل في عمليات الإدراك الحسي، والتذكر، والتعرف، والتمييز بين الأشياء، والتخيل، والاستقراء والمقارنة والاستنباط والاستنتاج والحكم والتفكير".

أما الدكتور/ أحمد عبد الرحيم السايح فيعرفها كالآتي:

"المعرفة: إدراك الشيء بتفكر وتدبر لأثره...والمعرفة أخص من العلم والعلم والمعرفة يفرق بينهما من جهة اللفظ ومن جهة المعنى...أما الفرق من جهة المعنى فمن وجوه: أحدها: المعرفة تتعلق بذات الشيء، والعلم يتعلق بأحوال الشيء، فيقول: عرفت أباك وعلمته صالحاً. فالمعرفة: تصور صورة الشيء، والعلم حضور أحوال الشيء وصفاته، والمعرفة نسبة التصور والعلم نسبة التصديق. ثانيها: أنّ المعرفة في الغالب تكون لما غاب عن القلب بعد إدراكه، فإذا أدركه قيل عرفه، أو تكون وصفاً له بصفات قامت في نفسه. فإذا رآه وعلم أنه الموصوف بها قيل: عرفه. فالمعرفة نسبة الذكر في النفس، وهو حضور ما كان غائباً عن الذكر، ولهذا كان ضدها الإنكار. وضد العلم الجهل. ويقال عرف الحق فأقر به،

[1] - محمد مجذوب محمد صالح: "المغني في الأسلمة"، كتاب غير منشور.

وعرفه فأنكره. ثالثها: أنّ المعرفة تفيد تمييز المعروف عن غيره، والعلم يفيد تميز ما يوصف به عن غيره. رابعها: أنك إذا قلت: علمت محمداً لم تفد المخاطب شيئاً، لأنه ينتظر أن تخبره على أي حال علمته...فإذا قلت كريماً أو شجاعاً، حصلت له الفائدة. وإذا قلت: عرفت محمداً، استفاد المخاطب أنك أثبته وميزته عن غيره، ولم يبق أن ينتظر شيئاً آخر. خامسها: أن المعرفة علم يعين الشيء مفصلاً عما سواه، بخلاف العلم فإنه يتعلق بالشيء مجملاً...والفرق بين العلم والمعرفة عند المحققين أن المعرفة هي العلم الذي يقوم العالم بموجبه ومقتضاه، فلا يطلقون المعرفة على مدلول العلم وحده".

والذي ترجّح لكاتب هذا البحث، بعد الإمعان في دلالة الآيات التي وردت فيها مشتقات كلمة معرفة، وبعد النظر في الآراء المتقدمة لعلماء أجلاء، هو أنّ مفهوم المعرفة يتلخص في أنّ المعرفة هي:

"عملية توظيف ذهني لما تراكم في الذاكرة من معلومات حسية عن عالم الشهادة للتمييز الفوري بين المثيرات الخارجية التي نتصل بها في حياتنا العملية، ولتحديد ردود أفعالنا تجاهها. كل ذلك من خلال المقارنة فالمطابقة بين وارد الحس من معلومات عن المثير الخارجي ووارد الذاكرة الفوري من مخزون المعلومات عن ذلك المثير، وما يتبع ذلك من تداعي بقية المعلومات التي نمتلكها عن ذلك المثير مما يعمّق معرفتنا به".

ويمكننا أن نميز العمليات الذهنية والنفسية الآتية في العملية المعرفية:

1/ عملية الاستقبال(Reception) للمعلومات الحسية من المثير الخارجي؛

2/ عملية البحث(Search) عن معلومات في الذاكرة مطابقة أو مشابهة للمعلومات المستقبَلة؛

3/ عملية الاستحضار (Retrieval) للمعلومات المناسبة من الذاكرة؛
4/ عملية المقارنة(Comparison) بين المعلومات الواردة ومعلومات الذاكرة؛
5/ عملية المطابقة(Matching) بين نوعيْ المعلومات؛
6/ التمييز (Identification) للمثير الخارجي؛
7/ عملية التذكر (Remembrance)،
8/ عملية التعرف(Cognition) على المثير الخارجي؛
9/ عملية رد الفعل(Reaction) على المثير الخارجي.

هكذا تبدو لنا المعرفة باعتبارها عملية(Process) ذاتية(Subjective)، يمارسها جميع الناس بتلقائية فطرية(Innate) وفورية(Instantaneous)، وفي جميع الأحوال التي يحتفظ فيها الإنسان بوعيه(Consciousness)، وذلك من أجل تسيير حياتنا العملية العادية. العملية المعرفية إذن هي حقيقة وعينا بمحيطنا الخارجي وأساس تفاعلنا معه، وهي العملية الاتصالية الجوهرية التي يتم من خلالها الفعل والتواصل الاجتماعي. والوسائل الأساسية التي نمارس من خلالها هذه العملية هي وسائل الحس الناقلة للمعلومات من المحيط الخارجي، والقلب المعني بكل العمليات الإدراكية والانفعالية في دواخلنا. ولما كانت هذه طبيعة المعرفة فإنها من خصائص المخلوقين الذين قد يتذكرون فيعرفون وقد ينسون فينكرون، ولا تجوز في حق الله تعالى، عالم الغيب والشهادة. كذلك فإن الله تعالى لا يُعرف بل يُعلم، فلا نقول "العارف بالله" بل "العالم بالله"، وقد جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري: (عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إِذَا أَمَرَهُمْ أَمَرَهُمْ مِنْ الْأَعْمَالِ بِمَا يُطِيقُونَ، قَالُوا إِنَّا لَسْنَا كَهَيْئَتِكَ

يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، فَيَغْضَبُ حَتَّى يُعْرَفَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ ثُمَّ يَقُولُ: (إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللَّهِ أَنَا).

6- العلاقة بين العلم والمعرفة[1]

إذا كان هذا هو مفهوم المعرفة وقد سبقه تبيان ماهية العلم فما هو الفرق بينهما، وما هي نوع العلاقة التي تجمع بينهما؟

الفرق الأول؛ الذي يبدو لنا، هو أن المعرفة عملية(Process) ذاتية(Subjective) لا تنفك عن الشخص الذي يمارسها، بينما العلم جوهر مستقل(Objective) عن ذات الإنسان. والذاتية التي يمكن أن تنسب إلى العلم لا تتعلق بجوهره وإنما برؤية العالم ومسلماتها التي تحدد للباحث مصادر علمه ومحتواه ومنهجيته وأهدافه. ولكن في إطار هذه المسلمات القبلية يظل العلم المبتغى جوهر مستقل، وتتمتع منهجيته بموضوعية تسمح لأتباع الرؤية الكونية المعنية بمزاولة العملية العلمية من خلال هذه المنهجية بما يمكّن من جعل النتائج العلمية التي يصل إليها باحث ما حقاً مشاعاً للآخرين يمكن التثبت من صحتها من خلال تجاربهم المستقلة.

الفرق الثاني؛ الذي يبدو لنا، هو أنّ العملية العلمية عملية إبداعية تؤدي إلى إيجاد معلومات يقينية جديدة تضاف إلى رصيدنا العلمي عن شيء كان مجهولاً، كلّه أو بعضه، من قبل، بينما المعرفة هي عملية استرجاع لمعلومات قديمة في الذاكرة عن شيء كان معروفا لنا سلفا.

[1] - من أجل رؤية مختلفة للتمييز بين المفهومين أنظر كلا من إبراهيم أحمد عمر(العلم والإيمان)، ومحمد مجذوب محمد صالح(المغني في الأسلمة).

الفرق الثالث؛ هو أنّ هدف العلم الوصول إلى الحق الذي يحكم ما يظهر من الأشياء، بينما هدف المعرفة هو مجرد التمييز بين الأشياء من ظاهرها، ومن ثم تسميتها وتصنيفها.

الفرق الرابع؛ هو سمة التلقائية التي تمارس بها العملية المعرفية بينما العملية العلمية تقوم على الرصانة والأناة والتثبت المنهجي. لذلك فالمعرفة يمارسها جميع الناس، بل حتى الحيوانات والحشرات تمارسها، لأنا نرى حياتها اليومية تعتمد على التمييز بين موجودات المحيط الذي تتحرك فيه، بينما إنتاج العلم لا يمارسه إلا الخاصة من الناس.

الفرق الخامس؛ هو أنّ المعرفة لما كانت عملية ذاتية فإنّه يمكن فيها الإنكار بحق، والإنكار المتعمّد دون الخوف من كشف الآخرين للحقيقة، ويؤكد هذا قوله تعالى في الإنكار الحقيقي: ﴿وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ58﴾(يوسف)، وفي الإنكار المتعمّد: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ 83﴾(النحل). والإنكار هنا مع معرفة النعمة هو تغطية(كفر) لها وجحود بها. أما العلم فلأنه جوهر مستقل، ومنهجيته يُتوخّى فيها الموضوعية، فإنه بعد الوصول إلى الحقيقة العلمية ونشرها على الملأ، لا يمكن إنكارها، وذلك لإمكان التثبت من صحتها بسهولة وبصورة مستقلة من قبل العلماء الآخرين. لذلك كان ضد العلم الجهل، وضد المعرفة الإنكار، سواء كان إنكاراً حقيقياً أم متعمداً.

الفرق السادس؛ هو أنّ العلم لا ينبني إلا على اليقين، بينما المعرفة يمكن أن تبنى على اليقين وعلى الظن، بحسب نوع المعلومات التي

تحملها الذاكرة عما يراد تمييزه، وبحسب جودة وارد الحواس من المعلومات الخارجية.

الفرق السابع؛ هو أن المعرفة لما كانت استجابة إدراكية لمثير خارجي باشر الحواس في إطار حركة الحياة اليومية، فإنه لابد فيها من رد فعل مهما كان ضئيلاً، أو غير محسوس(قلبي)، ولعل هذا يؤيده الحديث الشريف: "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان". أما العلم فلأنه جوهر مستقل يتعلق بحقائق الأشياء فيمكن إنتاجه وتدوينه، ومن ثم تعلمه من الكتب، أو بالسماع، دون مباشرة المتعلم بنفسه لموضوع العلم، وبصورة ذهنية مجردة عن الإنفعال، ورد الفعل المصاحب للعملية المعرفية، والناجم من أنه لابد من أن يباشرها الشخص بنفسه.

والآن لنرى ما هي العلاقة التي تجمع بين العلم والمعرفة؟ العلاقة الأساسية بين العلم والمعرفة التي تكشفت لنا من تحليلنا لكل من المفهومين هي أنّ العلم يمكن أن يرفد المعرفة بالمعلومات اليقينية، إضافة إلى المعلومات الحسية الأولية، التي تختزن في الذاكرة عن المثيرات الخارجية، وهي العنصر الأساسي في العملية المعرفية كما ذكرنا. فكلما كانت هذه المعلومات يقينية (علمية) كلما كانت معرفة الإنسان بمحيطه الخارجي صحيحة ومبنية على العلم، ومن ثم تكون ردود أفعاله سليمة وحكيمة، وكلما كانت هذه المعلومات ظنية(وهمية) كلما كانت معرفة الإنسان خاطئة ومبنية على الجهل، ومن ثم تكون ردود أفعاله خبط عشواء. والحقيقة هي أننا إذا استثنينا المعلومات الحسية الأولية عن المحيط الخارجي التي يكتسبها الإنسان بخبرته العملية، والتي غالباً ما تكون صحيحة، مثل تمييز الرجل عن المرأة، والحمار عن البقرة، والطائر

عن الزاحف، بل ودقائق الأوصاف الظاهرة عن الأشياء، فإنّ ما وراء هذه المعلومات البسيطة الظاهرة، مما يحمله غالب الناس عن بيئتهم المباشرة وكونهم العريض، هي مجرد ظنون ولكنها مع ذلك تشكّل أساساً لمعرفتهم، ويرسمون حياتهم بمقتضاها، ويحددون مواقفهم بناء عليها. ذلك أن معرفتنا لمحيطنا الخارجي لا تقتصر فقط على تمييز الأشياء من خلال السمات الظاهرة لحواسنا، ولكن في ذات اللحظة تتداعى كل المعلومات المختزنة في ذاكرتنا عن الشيء موضوع المعرفة ليكتمل إدراكنا له، ومن ثم حكمنا عليه.

والمطلوب هو أن تكون حقائق العلم هي أساس المعرفة البشرية لا الأهواء والظنون: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ 36﴾(يونس)؛ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ 12﴾(الحجرات). والظن الذي ليس بإثم هنا هو ذلك الذي يصادف الحق كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ 46﴾(البقرة). وهو ظن منهجي بسبب عدم إمكان الوصول إلى اليقين لقصور في المنهج، والاستقراء خير مثال على ذلك، ومن ثمّ سُمّي الظن المنهجي الراجح علماً، مع أنه حقيقة ليس كذلك إلا إذا صادف الحق الذي يتوخاه.

هكذا يبدو لنا الدور الحاسم للعلم في العملية المعرفية، لذلك فنحن عندما نقارن النموذجين المعرفيين(التوحيدي والدنيوي) فإنما نقارن قدرتهما على مد الإنسان بالعلم عن كل حقائق الوجود التي يحتاج الإنسان إلى العلم بها، سواء تلك المتعلقة بعالم الشهادة أو بعالم الغيب. العلم إذن هو محور بحثنا هذا، والعلم لا المعرفة هو الذي أعلى القرآن شأنه، ووصف الله تعالى به نفسه ووصف به عباده الذين يخشونه: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ

عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ 28﴾(فاطر). ولكن العلم لا قيمة له إلا إذا أصبح أساساً لمعرفتنا(عملنا)، كما روى عنه ﷺ: "إعلموا ما شئتم فلن ينفعكم الله به حتى تعملوا به"، ومن ثم تصبح الطريقة التي يستطيع بها النموذج المعرفي جعل العلم أساساً للعمل قضية ذات خطر، وينبغي أن تعطى الاهتمام اللازم.

الفصل الثالث

التصور القرآني للاجتماع الإنساني

مفهوم رؤية العالم

هل هناك ضرورة معرفية تقتضيها الحكمة من خلق الإنسان؟ للإجابة عن هذا السؤال ينبغي أولا أن نتبين حقيقة هذه الحكمة من خلق الإنسان كما بينها القرآن. وسوف نقوم بهذه المهمة، إن شاء الله، من خلال تقديم رؤية للعالم من المنظور القرآني، وهي رؤية لعالم الإنسان في علاقته بعالم الغيب والشهادة، وأسمينا ذلك "**خطة الخلق العامة**". ولكن قبل أن نصحب معنا القارئ في هذه المهمة الجليلة إلى عالم القرآن الكريم يحسن بنا أن نلم بعجالة عن مفهوم "رؤية العالم" وقضاياه، حتى ندرك أننا لسنا أمام مهمة سردية وصفية بل أمام مهمة بنائية تركيبية نماذجية نمارس فيها وسعنا في التجريد النظري للوصول إلى رؤية معرفية للعالم الاجتماعي نبني عليها نماذجنا المعرفية التي هي موضوع هذا البحث.(7)

يعرّف المعنيون بالبحث في الفلسفة وفلسفة العلوم "رؤية العالم" بأنها مجموعة مترابطة من المفاهيم والنظريات التي يجب أن تمكننا من بناء صورة كلية للعالم، وبهذه الطريقة نستطيع أن نفسّر أكبر عدد ممكن من عناصر خبراتنا. وهكذا فإنّ رؤية العالم هي إطار مرجعي يمكن أن نضع فيه كل ما يواجهنا من خبرات متنوعة في الحياة. ويتبع هذا التعريف مجموعة من القضايا، هي:

1/ بناء رؤية للعالم

تشتمل علي محاولات لتطوير رؤي للعالم تأخذ في الاعتبار أكبر قدر من أوجه خبراتنا الحياتية. ورغم أنّ هذا البناء يتم عبر جسور اللغة التي تتسم بالمحدودية إلا أنّ مشروع البناء يستحق الجهد. يرتبط بناء الرؤى للعالم بالثقافة التي عبرها يتم تداول المعاني، وتنتقل أنماط السلوك من جيل إلى جيل، وحيث يتم إنتاج المشاكل الاجتماعية والسياسية، وأنواع الفنون. أما المواد التي تبنى بها الرؤى فتأتي من العلم الذي تتيحه لنا مصادرنا المعرفية عن عالمنا، ومن خبراتنا الذاتية العميقة، ومن معاملاتنا العملية مع أشياء الحياة. كل هذه الأمور ترتبط بالضرورة بثقافة معينة ليست بجامدة بل هي في تغير مستمر. لذلك فإن رؤية العالم ليست صورة جامدة أو نسخة كربونية من العالم، بل تحاول أن تلتقط أكبر قدر من سمات عالمنا.

2/ خصائص رؤية العالم

أهم خصائص رؤية العالم هي "التناسق" و "الوفاء للتجربة". إنّ مبدأ التناسق يقتضي أن تكون رؤية العالم كل مترابط من المفاهيم والمسلمات والنظريات والإستعارات التي لا يقصى بعضها بعضاً، بل يمكن التفكير فيها مجتمعة. سوف تكون رؤية العالم وفية للتجربة فقط

عندما لا تناقض حقائق تجريبية معلومة. ولكن مع ذلك فإن رؤية العالم أكبر من مجموع الحقائق العلمية التي تأتي بها العلوم الفيزيائية والاجتماعية. لذلك فإن رؤية العالم قد تلهم مزيداً من التطور في العلم، وقد تنتقد بعض جوانبه. من هذه الزاوية تصبح رؤية العالم امتداداً وتواصلاً لما جاء إلينا من العلوم، أحياناً تتطابق معه، وأحياناً تقوم بالتعميم منه، وأحياناً تنقده وترفضه.

إنّ رؤية العالم لا تنسب إلى ناتج العلوم وحده بل ينبغي أن تسمح لنا بتضمين عالم المعاني وعالم القيم بحيث نفهم أكبر قدر من سمات عالمنا. ولأن عملية التقويم تحتوي على قدر كبير من الذاتية ومن ثم تلتصق بشخص بعينه حتى داخل الثقافة الواحدة فإن من الصعوبة البالغة تحقيق رؤية عالم كونية شاملة وواحدة لكل الناس.

3/ المكونات السبعة لرؤية العالم

1.3- نموذج للعالم(A model of the world)

يجب أن تمكننا رؤية العالم من فهم كيف يعمل العالم وكيف بُني. "العالم" هنا تعني كل شيء موجود حولنا بما في ذلك العالم الفيزيائي، الأرض، الحياة، العقل، المجتمع والثقافة. الإنسان نفسه جزء مهم من العالم لذلك لابد أن تجيب رؤية العالم عن السؤال الأساس: من نحن؟

2.3- التفسير(Explanation)

لماذا العالم على ما هو عليه؟ من أين جاء هذا العالم؟ من أين جاء الجنس البشري؟

3.3- المستقبليات(Futurology)

إلى أين نحن ذاهبون؟ كيف نختار بين المسارات المستقبلية المختلفة بحيث نفضل ما يجب تفضيله؟

4.3- القيم(Values)

ما هو الخير والشر؟ يتضمن هذا المكون النظام الأخلاقي الذي يحدد لنا ما يجب وما لا يجب أن نفعله. يعطينا هذا المكون أيضاً زمرة من المقاصد التي تقود أفعالنا.

5.3- الفعل(Action)

إن معرفة الأهداف والمقاصد لا يعني معرفة كيفية الوصول إليها، لذلك لابد من الإجابة عن السؤال: كيف نفعل؟ يجب أن نعطي نظرية للفعل تعيننا على حل مشاكل عملية، وتنفيذ خطط أفعالنا.

6.3- العلم(Knowledge)

تعتمد الخطط على العلم والمعلومات والنظريات والنماذج التي تصف الظواهر التي تواجهنا. لذلك نحن في حاجة لمعرفة كيف نبني نماذج يمكن الاعتماد عليها، وهذا هو مكوّن كسب العلم في رؤية العالم. يجب الإجابة عن السؤال المتعلق بما هو حقيقي وما هو كاذب.

7.3- كُتل البناء(Building Blocks)

الرؤى للعالم لا تبدأ من لا شيء بل لابد من كُتَلٍ تبدأ بها، وتتمثل في العلم والنظريات العلمية القائمة، النماذج، المفاهيم، القيم وغيرها من الموجهات المتوزعة بين التخصصات العلمية والأيديولوجيات.

4/ اختبارات رؤية العالم

1.4- اختبار النسقية: هل رؤية العالم المعنية متسقة منطقياً؟

2.4- اختبار الوسطية: هل تقوم رؤية العالم المعنية على ميزان قسط بين التعقيد والتبسيط؟

3.4- اختبار القوة التفسيرية ومدى الرؤية: إلى أي مدى تحسن رؤية العالم تفسير الواقع؛ وما مدى كمال الأدّلة الداعمة لمجال رؤيتها؟

4.4- اختبار التوافق: إلى أي مدى تتوافق رؤية العالم المعنية مع حقائق الواقع المؤكدة؟

5.4- اختبار الإثبات: هل يمكن تأكيد أو تكذيب الحقائق المركزية التي تدعيها رؤية العالم المعنية؟

6.4- اختبار الواقعية: هل تدعم رؤية العالم المعنية نتائج واقعية وعملية بحيث يمكن عيشها في الخارج؟

7.4- الاختبار الوجودي: هل تعالج رؤية العالم الاحتياجات الداخلية الحقيقية للبشر بحيث يمكن عيشها في الداخل الوجداني؟

8.4- اختبار المنافسة: هل تستطيع رؤية العالم المعنية المنافسة في سوق الأفكار؟

9.4- اختبار التنبؤ: هل تستطيع رؤية العالم المعنية التنبؤ بنجاح بالاكتشافات المستقبلية؟

رؤية العالم ليست تجميعاً لإجابات مستقلة عن الأسئلة أعلاه، ولكنها بناء معرفي متماسك تتولد من منطقها الداخلي الإجابات المطلوبة والمناسبة لتلك الأسئلة. وسوف نقوم الآن بمهمة بناء رؤية العالم عن الاجتماع الإنساني من المنظور القرآني بغرض الإجابة فقط عن السؤال المعرفي المتعلق بالظاهرة الاجتماعية، والله المستعان وعليه التكلان.

التصور القرآني للاجتماع الإنساني

إنّ المتأمل في آيات الذكر الحكيم يتأكد لديه أن الحكمة التي من أجلها خلق الإنسان تقتضي منه المعرفة، وسوف نتتبع في الصفحات التالية هذه الحكمة من خلق الإنسان كما وردت في القرآن الكريم لنستل من مجموع آياته ما أسميناه بالتصور القرآني للاجتماع الإنساني، أو في اصطلاح أخص، ب**"خطة الخلق العامة"**، وهي حكمة ثاوية في القرآن لمن يتدبّر.

نستخدم مصطلح "**خطة الخلق العامة**" للدلالة على التدبير الإلهي الخاص بخلق الإنسان واستخلافه في الأرض ومقتضى هذا الاستخلاف من تسخير ما في السموات وما في الأرض جميعا له وتحميله، تكليفا، أمانة أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها وحملها هو، وما يترتب على هذا الحمل من مسؤولية وجزاء. وقد أخبرنا القرآن الكريم أن **خطة الخلق العامة** هذه قبل أن تحكم حياة الإنسان في الأرض قد تم اختبارها في الملأ الأعلى بمشاركة جميع الأطراف المعنية: الخالق سبحانه، الملائكة، البشر ممثلين في آدم وحواء عليهما السلام، والجن ممثلين في إبليس. وليس هدفنا هنا سرد الوقائع التاريخية التي حدثت في عالم الغيب وأدت إلى هبوط الإنسان إلى الأرض، فقد فعلنا ذلك في بحث آخر، وإنما هدفنا هو التأسيس المعرفي **ل"خطة الخلق العامة"** على الأرض بغرض توظيفها منهجيا كأداة معرفية لتفسير الظاهرة الاجتماعية عبر الزمان والمكان. وما يلي من صفحات عبارة عن بسط منهجي **ل"خطة الخلق العامة"** هذه وتبيان أهميتها المنهجية في دراسة الاجتماع الإنساني.

المبدأ الكلي الذي ترتكز عليه الرؤية الكونية الاسلامية هو مبدأ التوحيد: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ 1 اللَّهُ الصَّمَدُ 2 لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ 3 وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ 4﴾(الإخلاص). فالله تعالى هو خالق السماوات والأرض وما

بينهما بالحق وأجل مسمى؛ وهو الذي تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن؛ وإن من شيئ إلا يسبح بحمده؛ وهو الذي أخبر أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيئ حي؛ وهو الذي قال يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده. وهو الذي أنشأ الإنسان من الأرض واستعمره فيها، وفيها يعيده ومنها يخرجه تارة أخرى؛ وهو الذي أرسل رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط؛ وهو الذي أخبر الناس في كتبه التي جاء بها رسله أن كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز. وقد بين الله تعالى حقيقة الحياة الدنيا، ومآلات أمور الناس فيها وفي الآخرة فقال: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ 20﴾(الحديد).

هذه المآلات النهائية للاجتماع الإنساني يمكن تفصيلها في رؤية معرفية للظاهرة الاجتماعية على النحو الآتي: المبدأ الكلي الذي تنطلق منه الرؤية القرآنية للظاهرة الاجتماعية المعّبرة عن حقيقة الحياة البشرية على هذه الأرض هو أن الله تعالى إنما خلق الإنسان لعبادته: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:56). وعبادة الله تعالى تعني العلم به، ثم القيام بأمره ونهيه في أرضه بمقتضى شرعه. وفي هذا الإطار فإننا نجمل الأصول النظرية المنبثقة من هذا المبدأ التوحيدي الكلي في الآتي:

أولاً؛ إنّ عبادة الله تعالى مسرحها الذي تدور فيه هو الأرض: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى

حِينٍ﴾(البقرة:36)؛ ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾(الأعراف:25).

ثانياً؛ إنّ هذه العبادة تتم في إطار تكريم الإنسان وتفضيله ومن ثم استخلافه على الأرض: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(الإسراء:70)؛ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(البقرة:30). الخليفة وسط بين طرفين، فلا هو مالك أصيل مطلق التصرف والحرية فيما استخلف فيه، ولا هو مقهور مجبور لا حول له ولا قوة، ولا إرادة. فعقد الخلافة يقتضي أن يقوم المستخْلَف "الإنسان" بسياسة ما استخلف فيه "الأرض" وفق ما يحب ويرضى المستْخِلف "الله تعالى". والناس في مهمة الاستخلاف سواء، فخالقهم واحد، وأصلهم واحد، وإنما يتفاضلون بمقدار قيام كل منهم بحق الاستخلاف فيما استخلف فيه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ 13﴾(الحجرات)؛ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا 1﴾(النساء،).

ثالثاً، إنّ عقد الاستخلاف الذي تتم في إطاره العبادة يقوم على عمارة الأرض: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾(هود:61).

رابعاً، إنّ هذه الخلافة تقوم على مبدأ الامتحان والابتلاء والمحاسبة: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾(الملك:2).

فالإنسان يمكنه أن يعمر الأرض وفق منهج الله فيعمل فيها صالحاً، أو وفق هوى نفسه فيفسد فيها.

خامساً، إنّ مجال الابتلاء والفتنة يتمحور فيما أودع الله سبحانه وتعالى في الأرض من زينة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾(الكهف:7).

سادساً، إنّ ما على الأرض من زينة إنما يقوم على أصلين جامعين هما "المال"(موارد معدنية، زراعية، حيوانية، تتحول في مجموعها إلى نقود وسلع بسبب القيمة المضافة بفعل الإنسان) و"البنون"(علاقة جنس بين ذكر وأنثى تثمر أبناء، تؤدي إلى قيام أسرة ثم أسرة ممتدة ... إلى شعوب وقبائل): ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (الكهف:46).

سابعاً، إنّ الابتلاء في "المال" و "البنين" إنما صار ممكناً بسبب تزيين ما أودع الله فيهما من شهوات للنفس البشرية: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾(آل عمران:14).

ثامناً، إنّ نتيجة هذا الامتحان في نعمتي المال والبنين، وما يترتب على تفاعلهما مع النفس البشرية من نعم تفصيلية أخرى ترجع إليهما، إما أن تكون شكراً أو كفراً على نعمة الله، والشكر هو المطلوب. والشكر على النعمة هو جوهر عبادة الإنسان لله تعالى في هذه الأرض، وهو ثمرة العمل الصالح في زينة الحياة الدنيا: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾(الإنسان:3)؛ ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ (الزمر:7).

تاسعاً، إنّ الإنسان إنما أصبح قادراً على الاختيار بين الكفر والشكر بسبب ما هيأه الله تعالى به من قدرة على اكتساب العلم وتوظيفه في

الكون، كفراً أو شكراً، وبسبب ما أودع الله تعالى في النفس البشرية من دوافع الفجور والتقوى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(النحل:78)؛ ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق: 5)؛ ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا(8) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا(9) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا(10)﴾(الشمس:7-10). ثم منح الله الإنسان الحرية وإرادة الاختيار والمشيئة في الفعل بأخلاق التقوى الموجبة(الصبر، السخاء، العدل، الإحسان، الأمانة، الصدق ..إلخ) في زينة الحياة الدنيا فيكون شاكراً، أو بأخلاق الفجور السالبة(الشح، البخل، الكبر، الحسد ..إلخ) فيكون كافراً: (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)(الكهف:29).

عاشراً، الشكر لله تعالى على نعمائه يقتضي توفر ثلاثة عناصر، هي علم وإيمان وعمل صالح:

(1) علم بأمر المنعم(الله تعالى)، وعلم بالمنعم عليه(الإنسان)، وعلم بالنعمة(المال، البنون) والحكمة من خلقها، وكيف هي نعمة في حق المنعم عليه.

(2) إيمان بالله تعالى، أسماء وصفات، يترتب عليه حال نفسي من الاطمئنان إلى رحمة الله وإحساس بالمنة وتمني الخير للآخرين.

(3) العمل الصالح الذي يؤدي إلى استغلال النعم فيما يرضي المنعم، والطمع في المزيد من المنعم يحفزه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ 7﴾(إبراهيم). ولن

يبلغ العمل تمام الصلاح حتى يتحقق له شرطان: أن يكون صوابا خالصاً لله، وأن يكون وفق شرع الله.

المتتبع للمفاهيم المفتاحية الثلاثة (النفس، المال، البنون) في القرآن الكريم يجد أنها وردت أحياناً معبرة عن جملة المعنى الذي يحتويه الحقل الدلالي للمفهوم، وأحياناً ترد مفصلة هذا المعنى إلى عناصره الأساسية، كما في الآتي:

ورد مفهوم "النفس" في القرآن الكريم بمعنى كل الإنسان، في بعده المادي الحيوي وبعده المعنوي: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾(لقمان:34). ولكن مفهوم النفس ورد أيضاً بمعنى ذلك العنصر غير المادي الممتزج بالجسد المادي كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الزمر:42).

ورد مفهوم "البنين" في القرآن الكريم ليعبر أحياناً عن مجمل علاقة الابتلاء الكامنة فيه: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾(الكهف:46) وهي علاقة (رجل–امرأة–أبناء). ولكنه ورد أيضاً بمعنى الأبناء، ذكورا وإناثا، مقابل الزوجة: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾(النحل :72). وأخيراً يرد مفهوم البنين بمعنى الذكور من الأبناء مقابل البنات: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾(الصافات:149).

يرد كذلك مفهوم المال بذات الطريقة ولكن بتفاصيل أكثر لكثرة عناصره المكونة له، وكثرة تجليات هذه العناصر، منفردة ومتفاعلة، فمثلا

يرد المفهوم معبراً عن كل معاني حقله الدلالي كما في قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا 46﴾(الكهف)، ثم يرد المفهوم مفصلا إلى عناصره الأولية: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ 14﴾(آل عمران).

إذن المفاهيم القرآنية الثلاثة (النفس،المال،البنون) هي مفاهيم معرفية جامعة، والعناصر الكونية المعادلة لها هي أصل الظاهرة الاجتماعية من حيث العلة الظاهرة، إذ لا تحتاج لأكثر منها علة وجود، ولا تحتمل أدنى منها، كما يستبين أدناه. ولكن أين وجه الإحكام في هذا الابتلاء الإلهي للبشر على الأرض بحيث يضمن دخول جميع الناس فيه؟ إن وجه الإحكام يكمن في الثنائية التي خلق الله بها الإنسان: ثنائية الجسد والنفس، وثنائية النفس من حيث إلهامها فجورها وتقواها، فالثنائية الأولى أدت إلى ثنائية في الدوافع بعضها يختص به الجسد الطيني وهي الدوافع الحيوية، وبعضها تختص به النفس وهي الدوافع النفسية، أو الاجتماعية.

الدوافع الحيوية الأساسية هي الجوع الناجم عن عدم الأكل، والعطش الناجم عن عدم الشرب، والعري الناجم عن عدم اللبس، والإضحاء الناجم عن عدم السكن، والعنت الناجم عن عدم الوقاع. هذه الدوافع الحيوية المرتبطة بعنصري "المال" و"البنين" هي دوافع ضرورية ولابد من إشباعها لحفظ أصل حياة الإنسان على الأرض، وهي التي تضمن دخول جميع الناس، في كل زمان ومكان، في فتنة المال والبنين.

لذلك كانت "النفس" و "المال" و"البنون" من الأصول الكليّة التي تتأسس عليها مقاصد الشريعة الاسلامية.

الدوافع النفسية مثل الطمع، الهلع، الشح، البخل، الكبر، الصبر، العدل، الإحسان، السخاء..إلخ هي الدوافع الضرورية التي تضمن جريان الابتلاء في كل الناس، في كل زمان ومكان. وهي الوسيلة التي تضمن تدافع الناس لعمارة الأرض لتحصيل زينة الحياة الدنيا ونيل حظوظهم من شهواتها. فإذا تفاعلت العناصر الكونية الثلاثة (النفس،المال،البنون)، المقابلة للمفاهيم المعرفية القرآنية، بمقتضى الضرورات الحيوية ابتداءً، نجم عن هذا التفاعل بروز عنصرين آخرين كانا موجودين من قبل بالقوة في هذه العناصر الثلاثة، وهما:

1/ "العلم بظاهر الحياة الدنيا" وكان موجوداً من قبل بالقوة، من حيث قابلية الإنسان للتعلّم(السمع،البصر،الفؤاد)، ومن حيث إمكان العلم الثاوي في الخلق في عالم الشهادة.

2/ "الهوى" الذي تتحرك دواعيه الفطرية في "النفس" بعد أن تذوق لذة الشهوات التي أودعها الله تعالى في "المال" و"البنين".

لما كان "العلم بظاهر الحياة الدنيا" يتولد عن التفاعل، بمقتضى الدوافع الحيوية والنفسية، بين العناصر الأولية الثلاثة الحاكمة للظاهرة الاجتماعية(النفس، المال، البنون) فإن دوره يظل وظيفيا بحتا حتى يأتي "علم الخبر" من السماء فيتوحدا، بمقتضى المنهجية التوحيدية، ليكوّنا معا "العلم التوحيدي"، الذي يكون له دوره العقدي كدليل إيمان بالله الواحد، بجانب دوره الوظيفي في صلاح حياة الناس ومعاشهم، أي ذلك العلم الذي

يحقق الإيمان في القلب والعمل الصالح في الأرض، أى في زينة الحياة الدنيا.

"النفس" إما أن تتفاعل مع "المال" و"البنين" بمقتضى "العلم التوحيدي" وأخلاق التقوى فيتحقق "الشكر" لله تعالى، وإما أن يتم التفاعل بمقتضى "الهوى" وأخلاق الفجور فيتحقق بذلك كفر النعمة. ومجمل هذا التفاعل هو المسئول عن نشأة المجتمعات وبروز جميع الظواهر الاجتماعية الناجمة عن التدافع البشري، في أي زمان ومكان.

لقد اقتضت حكمة الله خلق أول زوجين من ذكر وأنثى وهبوطهما إلى الأرض، وضرورة الجنس أدت إلى سكن الرجل إلى المرأة، وما نجم عن هذه العلاقة من أبناء اقتضى تأسيس أسرة. ثم عزز قيام الأسرة ضرورات المأكل والمشرب والملبس والمسكن، وما تقتضيه من تقسيم العمل وتوزيع الأدوار بين أفراد الأسرة. ومن البديهي أن نتصور كيف أن الضرورات الحيوية هذه أدت محاولة إشباعها إلى أن تتسع دائرة الأسرة لتصبح أسرة ممتدة، ثم رهطاً وقبيلة، حتى إذا ضاقت رقعتهم الجغرافية عن تدافعهم وأطماعهم انبثوا في فجاج الأرض رجالاً ونساءً، فكانت الشعوب والأمم والمجتمعات الحضرية والبدوية، وكان العمران.

إذن الوفاء بحق الضرورات الحيوية يضمن لنا قيام المجتمع، وتفاعل "النفس" بمقتضى "العلم التوحيدي" أو"الهوى" مع "المال" و"البنين" يضمن لنا قيام الابتلاء. فالنفس التي ألهمت فجورها وتقواها وزين لها حب الشهوات الدنيوية من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، سرعان ما تذوق لذة تلك الشهوات التي بدورها تثير في النفس محفزات الابتلاء، ونعني بها دوافع الفجور والتقوى.

ونرجّح أن أول ما يثور من تلك الدوافع هو "الطمع"، حيث يطمع كل شخص في الحصول على المزيد من زينة الحياة الدنيا، ومن ثم يصبح الإقبال عليها لإشباع الشهوة لا للضرورة والحاجة. ولما كانت أطماع الناس أكثر مما هو مطموع فيه في أي وقت ومكان، سرعان ما تبدأ الدوافع السالبة الأخرى تثور في النفس بسبب التدافع بين الناس لحيازة زينة الحياة الدنيا، والاستئثار بأكبر نصيب منها.

هكذا يبدأ التنازع والتصارع بين الناس بسبب التهافت على زينة الحياة الدنيا، فاحتاجوا إلى عقد اجتماعي يقوم بمقتضاه حاكم يسوس أمرهم، وينظم علاقاتهم، ويفض نزاعاتهم، ويجلب لهم مصالحهم، ويدرأ عنهم المفاسد التي تأتي من عند أنفسهم ومن عند غيرهم. واحتاج الحاكم إلى حكومة وشريعة ونظم ومؤسسات سياسية تعينه على أداء مسئولياته. واحتاج المجتمع إلى أعراف وتقاليد وعادات ومؤسسات اجتماعية واقتصادية تحفظ له تماسكه وتضمن له استمراريته. وهكذا يمكننا أن نتابع تطور المجتمعات وتعددها وتنوع مظاهر الحياة فيها، وما يبدعه الإنسان من علم وتقنية يسخّر بها زينة الحياة الدنيا لإشباع شهواته من متاعها، وتعظيم حظوظه منها. إذن فإن أي ظاهرة من الظواهر البشرية جاءت مترتبة على نشوء المجتمعات وتطورها من خلال تدافع أفرادها فإن مردها الأخير تفسيرا، من حيث العلة الظاهرة، إلى العناصر الأولية للظاهرة الاجتماعية(النفس،المال،البنون)، وطبيعة التفاعل بينها كما أجملناه سابقاً.

إنّ حقيقة الامتحان والابتلاء الذي هو قدر الإنسان في هذه الأرض، وفي الكون المسخر له﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ 13﴾ (الجاثية)، تتمثل

في شكل أحكام شرعية جاءت بها الرسل من عند الله تعالى، طبيعتها "أفعل" و"لا تفعل"، وذات علاقة مباشرة وغير مباشرة باستخدام الناس لزينة الحياة الدنيا. ورغم أن حقيقة هذه التكاليف الشرعية تقوم على جلب المصالح ودرء المفاسد عن الناس في الدنيا والآخرة إلا أنها تتعارض في الغالب مع هوى النفس في استخدامها لزينة الحياة الدنيا. إن التزام الإنسان بتلك الأوامر والنواهي الربانية هو أساس العمل الصالح المثمر للشكر على النعمة الذي جعله الله تعالى ثمناً للانتفاع بها: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ 7﴾(إبراهيم)؛ ﴿مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا 147﴾(النساء). ولكن الدوافع السالبة التي أودعها الله في النفس البشرية، والتي تتعلق بها أخلاق الفجور(الكبر، الشح، البخل، الطمع، الحسد..إلخ)، هي التي تجعل من طاعة الله فيما يأمر وينهى أمراً عسيراً على الإنسان تكرهه النفس، فتتمرد وتأبى زاعمة إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، أو كما استنكر قوم نبي الله شعيب: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾(هود:87).

ويستخدم القرآن الكريم مفهومي "الحياة الدنيا" و"الدار الآخرة" لتلخيص مداخل البشر إلى الابتلاء الذي جعله الله حكمة لخلقهم، وجعل أصله ومجاله زينة الحياة الدنيا: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾(الأعلى:16-17)؛ ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾(الأنعام:32)؛ ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ

نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾(الشورى:20).

إنّ مجال الامتحان واحد، وإن مادته واحدة: "زينة الحياة الدنيا"؛ ولكن من قال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾(المؤمنون:37)، أو قال: ﴿رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾(صّ:16)، فقد بنى حياته على مقصد دنيوي أساس، ألا وهو تعظيم متاع الحياة الدنيا: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾(الحديد:20).

أما من قال: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(البقرة:201)؛ أو قال: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾(غافر:39)، فقد بنى حياته على مقصد توحيدي أساس، ألا وهو تعظيم الإيمان بتعظيم العمل الصالح في زينة الحياة الدنيا، باعتبارها مزرعة الآخرة، طمعاً في تعظيم متاع الدار الآخرة:﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾(الحديد:21)؛ ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ * أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾(القصص:60-61).

لقد أرسل الله تعالى رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط في تدافعهم وتحصيلهم لحظوظهم من زينة الحياة الدنيا،

وتبياناً لكل شيئ حتى يحي من حيّ عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة. وما كان الرسول الخاتم، ﷺ، بدعا من الرسل، فقد جاءت شريعته في مقاصدها الكلية داعية إلى أن يكون حفظ "الإيمان" بالله تعالى المقصد الكلي الذي تتحدد بمقتضاه المقاصد الأخرى المحققة له، المتمثلة في حفظ أصول الظاهرة الاجتماعية التوحيدية(النفس، المال، البنون، العلم التوحيدي). ونقصد بالظاهرة الاجتماعية التوحيدية مجتمع التوحيد الذي يدخل بجميع تجلياته في السلم. وهكذا جاءت أمهات الكتاب مؤكدة حفظ الإيمان والعمل الصالح: ﴿وَالْعَصْرِ* إِنَّ الْأِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ* إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾(العصر:1-3)؛ وحفظ مدخلات الإيمان من "النفس": ﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾(الإسراء:33)؛ و"البنين": ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً * وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾(الأسراء31-32)؛ و"المال": ﴿وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ 188﴾ (البقرة)؛ و"العلم": ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً 36﴾(الإسراء:36).

إنّ العلاقة بين "الأيمان" من جهة وبين "النفس"، "العلم"، "المال" و"البنون" من جهة أخري هي علاقة بين ناتج ومدخلاته الضرورية، حيث تتفاعل هذه الأخيرة لينتج عن هذا التفاعل الإيمان بوجهيه، العقدي(التوحيد) والعملي(الشكر). ولا يمكن حفظ الإيمان إلا بحفظ هذه المدخلات الضرورية، كما لا يمكن حفظ مجتمع التوحيد على الدوام إلا بحفظ الإيمان ومدخلاته، وحفظ ميزان التفاعل بينها على الدوام، وهو معنى

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ 153﴾(الأنعام). لذلك يمكننا أن نفهم لماذا أصبحت المصالح التي تتأتى من هذه الأصول هي أصول المصالح الشرعية، وأن حفظ هذه الأصول الكلية هو الأصل الذي تتأسس عليه مقاصد الشريعة الإسلامية.

ولن يتأتى فهم المعنى الجامع للحفظ لهذه الكليات إلا من خلال تحليل التفاعل الكلي بين المتغيرات الكونية التي هي أصول الظاهرة الاجتماعية بمقتضى "العلم التوحيدي" أو "الهوى". وإذا كانت المقاصد الكلية للشريعة الإسلامية جاءت منزلة على الأصول الكونية الكلية للظاهرة الاجتماعية فإن بعض وسائل تحقيق تلك المقاصد مثل الأحكام الشرعية(عبادات، عادات،معاملات،جنايات) جاءت متوافقة مع التفاعل الكلي لمتغيرات (النفس،المال،البنون) بمقتضى "العلم التوحيدي" وما يتعلق به من أخلاق التقوى، أو بمقتضى "الهوى" وما يتعلق به من أخلاق الفجور. فكانت العبادات(صلاة،زكاة،صوم،حج) وسائل لتزكية النفس من "الهوى" الذي تتعلق به أخلاق ودوافع الفجور، وتمكيناً "للعلم" الذي تتعلق به أخلاق ودوافع التقوى. وكانت العادات تبياناً لما هو أحسن في علاقة النفس بالمال والبنين من عادات المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمنكح..إلخ. وكانت المعاملات تبياناً لما هو أصلح من علاقات بين الناس تحكم وتنظم تدافعهم في تحصيلهم لزينة الحياة الدنيا. وكانت الجنايات، حدوداً وتعازير، حياة لأولي الألباب من حيث قطعها الطريق على النفوس التي ألجمها "الهوى" فأرادت أن تفسد في الأرض بعد إصلاحها، جناية في حق المعبود(الله تعالى)، أو في حق العباد. وكانت

من قبل شهادة "لا إله إلا الله" إيذاناً بتوقيع عقد الاستخلاف، اختياراً دون إكراه، والتزاماً بالوفاء بمقتضياته من واجب الشكر للمستخلِف "الله تعالى" من قبل المستخْلَف "الإنسان" فيما استخلف فيه "الأرض". وعلى الجملة فإن الشريعة الربانية هى الميزان الذي يقيم الوزن بالقسط في التفاعل بين المتغيرات التي هي أصول الاجتماع الإنساني(الإيمان؛المتاع الدنيوي؛النفس؛العلم؛الهوى؛المال؛البنون)، ولكن الإنسان هو المسؤول تكليفا عن إقامة هذا الميزان بالقسط أو إخساره.

إنّ خيار "الحياة الدنيا" وخيار "الدار الآخرة" يمثلان رؤى كونية متباينة في التعامل مع زينة الحياة الدنيا(المال، البنون)، الأول من منطلقات الهوى والكفر في النفس، والثاني من منطلقات العلم والإيمان المفضية إلى الشكر. وتحتوي كل من هاتين الرؤيتين الكونيتين على نظام معرفي ترتب في إطاره المشاهدات الحسية وتختمر في بوتقته التجارب الشخصية مع العالم الخارجي لأولئك الذين يستبطنونه، فتتحدد بذلك الأسئلة العلمية التي تستحق الإثارة والبحث في مجال الطبيعة والمجتمع، ويتحدد تبعاً لذلك نوع الإجابة العلمية المقبولة لتلك الأسئلة، ومن ثم توصف السياسات العلاجية المناسبة.

إنّ جميع التحديات التي تواجه البشرية اليوم إنما تتم صياغتها كقضايا معرفية تتم دراستها وتحدد السياسات العالمية والقومية تجاهها من خلال النموذج المعرفي الوضعي الدنيوي المنبثق من خيار "الحياة الدنيا"، أو بتعبير آخر من رؤية العالم الدنيوية، والذي نما وترعرع ثم توطّن في التجربة الحضارية الغربية المعاصرة، المهيمنة بطغيانها اليوم على جميع

المجتمعات البشرية عبر مؤسسات الأمم المتحدة وشركات ومؤسسات ومنظمات الدول الغربية والرأسمالية العالمية.

نختتم هذا الإطار النظري لأصول الاجتماع الانساني في التصور القرآني بتلخيصه في الرسم البياني في الشكل رقم(2)، الذي يغني بوضوحه عن شرحه. تتجاوز رؤية العالم التي يلخصها هذا النظام الخصوصية الإسلامية إلى العالمية الإنسانية؛ والذاتية إلي الموضوعية العلمية، لأنها تمكّن من تأسيس علوم اجتماعية ذات قدرة تفسيرية لكل الظواهر الاجتماعية، سواء الناجمة عن التجليات التاريخية للنموذج التوحيدي، أو تلك الناجمة عن التجليات التاريخية للنموذج الدنيوي. كذلك تمكّن من تأسيس علوم معيارية تنبني على تعظيم العمل الصالح في زينة الحياة الدنيا، في إطار النموذج التوحيدي، أو على تعظيم المتاع الدنيوي في إطار النموذج الدنيوي.

إنّ هذه الرؤية الشاملة لعالم الاجتماع الإنساني تتكوّن من رؤيتين معياريتين هما، رؤية العالم التوحيدية التي يمثلها عمود الصناديق في أقصي يمين الرسم، ورؤية العالم الدنيوية التي يمثلها عمود الصناديق في أقصي يسار الرسم؛ وما بينهما فضاء اجتماعي تتداخل وتتدافع فيه قوى التأثير من كلا الرؤيتين. الشكل رقم(3) يجسّم الرؤية التوحيدية، ويبرز العلاقات الضرورية بين متغيراتها في إطار نظامها الاجتماعي الأشمل؛ بينما يجسّم الشكل رقم(4) الرؤية الدنيوية. ومن معطيات الرؤية التوحيدية تأتي الأحكام الشرعية(أفعل)، أي أحكام الوجوب والندب؛ ومن معطيات الرؤية الدنيوية تأتي الأحكام الشرعية(لا تفعل)، أي أحكام التحريم والكراهة؛ ومن فضاء التداخل بينهما تأتي أحكام الإباحة؛ مما يعني أن الشريعة

الإسلامية تتأسس أحكامها على معطيات الرؤيتين، وكذلك العلوم الاجتماعية الإسلامية عموما، باعتبار واردات التأثير من الرؤيتين على النفس البشرية، بما في ذلك نفس المسلم.

نموذج معرفي قرآني للاجتماع الإنساني

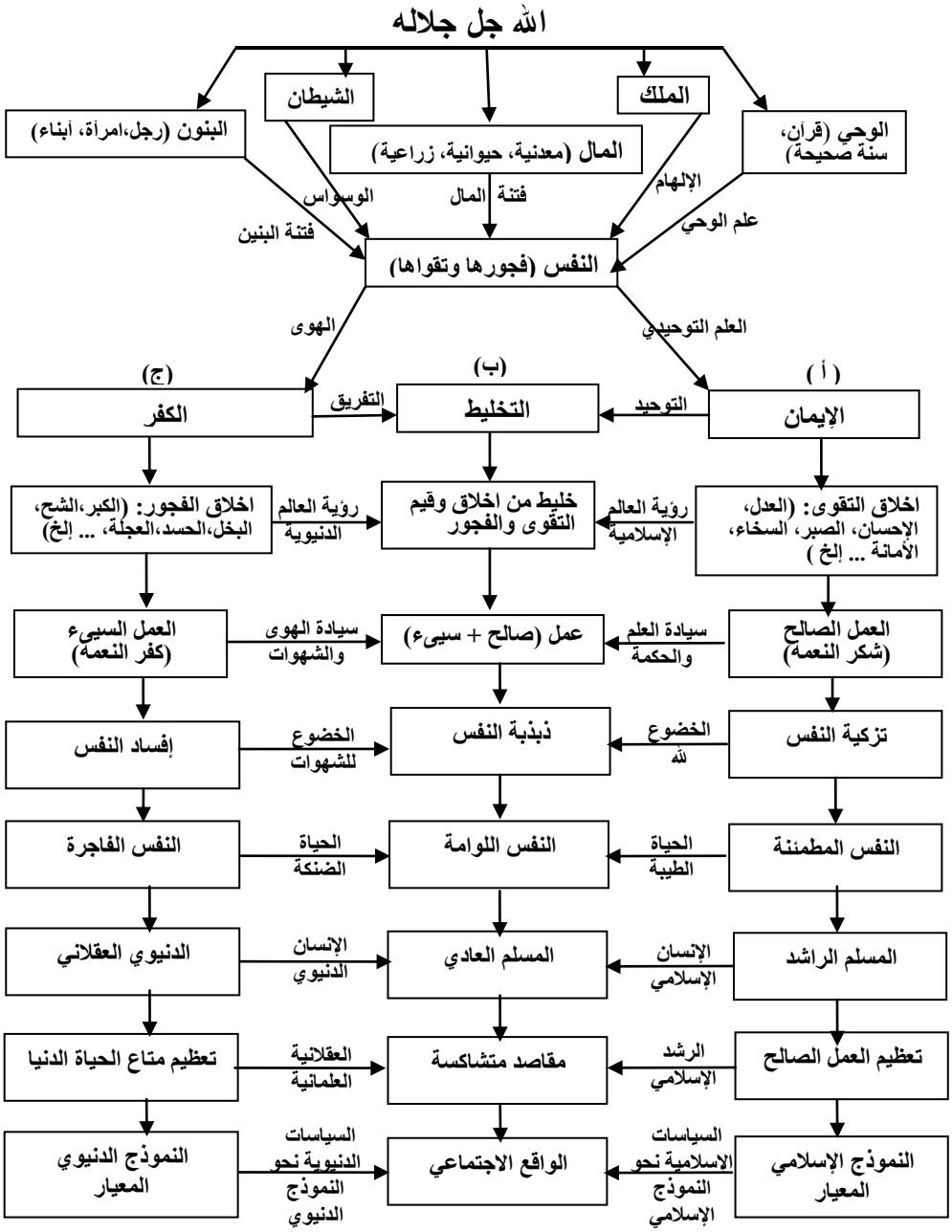

شكل رقم (3)

نموذج الاجتماع التوحيدي

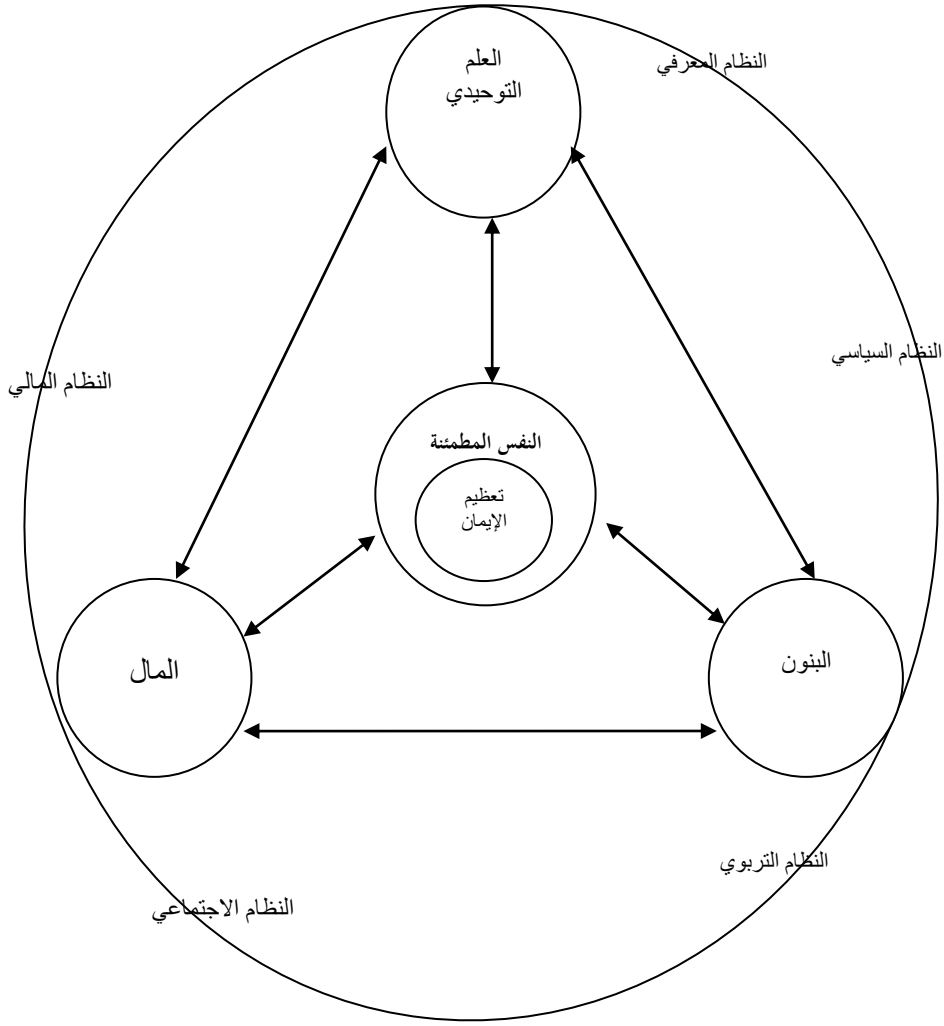

شكل رقم(4)

نموذج الاجتماع الدنيوي

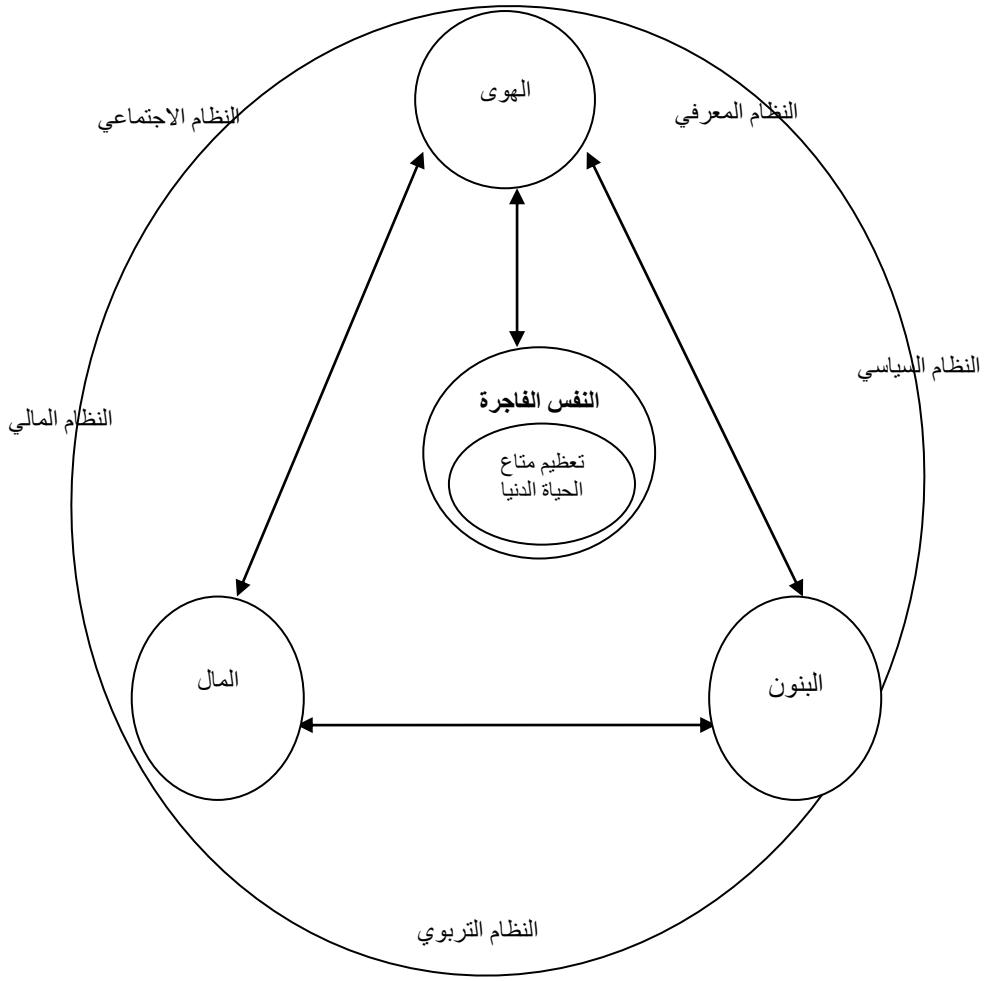

إنّ جوهر الرؤية التوحيدية هو الدالة التوحيدية(دالة الإيمان) التي يمثّل "الإيمان" متغيرها التابع(dependent variable) ومتغيرات "النفس المطمئنة"، "العلم التوحيدي"، "المال"، "البنون"، متغيراتها المستقلة(Independent variables)؛ فهي دالة تعبر عن علاقة بين ناتج ومدخلاته. هذه الدالة تتأسس عليها نظرية المسلم الراشد (Righteous Muslim) الذي توحدت مقاصده الحياتية مع مقاصد الشارع، ويوظف أكثر الوسائل المشروعة فعالية في سبيل تحقيقها، فهو بذلك عقلاني(Rational) أيضاً.

الضرورات الحيوية(الجوع، العطش، العرى، الإضحاء، العنت الجنسي) تدفع المؤمن إلى الوفاء بمقتضياتها من زينة الحياة الدنيا(المال،البنون)، ولا يكون ذلك عادة إلا بعمل. والعلم، الذي توحّد فيه الدور العقدي والدور الوظيفي، يبيّن آيات الله في المال والبنين، دليل إيمان بالله الواحد، ويبيّن النعمة فيهما، مصالح يطلبها المؤمن شكراً، والفتنة فيهما فيتجنبها رشداً. ثم يفصّل هذا العلم الأحكام الشرعية الضابطة للعمل ليعمل المؤمن بمقتضاها جلباً لمصالحه، في العاجل والآجل، ويحدد هذا العلم نوع العمل الراشد ووسائطه المؤسسية الأحكم، ووسائله الطبيعية الأفعل في تحقيق تلك المصالح. هذه جميعها حلقات من العلم الضروري لا تنفصم عراها دون أن تترك عجزاً كاملاً لدى المؤمن عن العمل الحضاري الراشد في زينة الحياة الدنيا. والإيمان المتجذّر في النفس التي تزكّت يدفع المؤمن الراشد لتحري قصد الشارع في المال والبنين فيقف عنده، استعصاماً من فتنة الشهوة فيهما. والعمل الصالح الذي تمّ والمصلحة التي تحققت، شكراً

لله، يعود أثرهما على الإيمان فيزداد المؤمن إيماناً مع إيمانه، وتزداد النعمة وتدوم بإذن الله.

إنّ جوهر الرؤية الدنيوية هو الدالة الدنيوية(دالة المتاع الدنيوي) التي يمثل "المتاع الدنيوي" متغيرها التابع، وتمثل "النفس الفاجرة"؛ "الهوى"؛ "المال"؛ "البنون" متغيراتها المستقلة؛ فهى أيضا دالة تعبر عن علاقة بين ناتج ومدخلاته. هذه الدالة تتأسس عليها نظرية الانسان الدنيوي العقلاني الذي توحدت مقاصده في تعظيم متاع الحياة الدنيا ويوظف أكثر الوسائل فعالية في سبيل تحقيقها، ومن هنا جاءت الصفة عقلاني(Rational).

الإسلام الذي جاء به محمد، ﷺ، هو التجلي التاريخي الأتم **لرؤية العالم التوحيدية**، من حيث التطبيق المنهجي القائم على العلم التوحيدي لأصولها الكلية وتفاصيلها الجزئية، ومن حيث مآلاتها ونتائجها الحتمية. **الرأسمالية الغربية** المعاصرة، في رأي الباحث، هى التجلي التاريخي الأتم **للرؤية الدنيوية**، من حيث التطبيق المنهجي القائم على العلم بظاهر الحياة الدنيا لأصولها الكلية وتفاصيلها الجزئية، ومن حيث مآلاتها ونتائجها الحتمية.

إنّ النظام القرآني للاجتماع الإنساني أعلاه يمكن أن يمثل "**برنامج بحث علمي**"، بمعناه الاصطلاحي في فلسفة العلوم، لا يُستدعَى في كلياته لتفسير التجليات التاريخية للظاهرة الاجتماعية، لأنه يمثل القلب الصلب للبرنامج، ولكن تولّد منه نظريات وفرضيات ونماذج تفسيرية وتأويلية تناسب الظاهرة الاجتماعية التاريخية المراد دراستها في الزمان والمكان.(8) ذلك لأننا أثبتنا، بفضل الله، وباتباع المنهج العلمي الصارم(الاستقراء،الاستنباط)، تدبرا في القرآن، أن الظواهر الاجتماعية،

مهما بدت تجلياتها في الزمان والمكان، ينتهي أمر تفسيرها إلى التفاعل، في ذلك الزمان والمكان، بين كل أو بعض المتغيرات الضرورية الكلية المنشئة للاجتماع الإنساني كما تبينها "**خطة الخلق العامة**"، وهي المتغيرات السبعة المنحصرة في: الإيمان؛ المتاع الدنيوي؛ النفس؛ العلم؛ الهوى؛ المال؛ البنون.

إنّ توليد وصياغة النماذج والنظريات والفرضيات التي يظن قدرتها على تفسير الظاهرة الاجتماعية التاريخية المراد دراستها ينبغي الرجوع فيها إلى "الوحي" وإلى "الواقع التاريخي" وإلى ما تراكم من "علوم الاجتماع الإنساني" و"مناهجها" للعلم بكيف تجلّت وتفاعلت تلك المتغيرات في الزمان والمكان، في إطار "**خطة الخلق العامة**"، بحيث نتج عن ذلك التجلّي والتفاعل التاريخي بين هذه المتغيرات الظاهرة الاجتماعية محل الدراسة. إنّ **خطة الخلق العامة** هي تجريد نظري كلي للتصور القرآني للاجتماع الإنساني، يبين الحقيقة المطلقة لمتغيراتها، وحقيقة التفاعل الدائم بينها، والسنن الإلهية التي تحكم ذلك التفاعل، ومآلاته المختلفة، في الدنيا والآخرة. لذلك فإن البحث العلمي في تجلياتها التاريخية سوف يثري فهمنا لحقيقتها النسبية المقيّدة بالزمان والمكان، وحقيقة التفاعلات بين متغيراتها المتجلية في الزمان والمكان، والكيفيات التي يتم بها ذلك التفاعل عبر التاريخ، وكيفية عمل آيات الله في الأنفس والآفاق بما يكيّف ذلك التفاعل، حتى يتبين لنا أنه الحق. وسوف نسوق مثالا من القرآن الكريم في ختام هذا البحث لندلل به على النموذج التفسيري التوحيدي فيما يتعلق بالظواهر الاجتماعية، في إطار **خطة الخلق العامة**، ولقد اخترنا اسم " *الظاهرة السيئية*" للمثال الذي سقناه من سورة سبأ في قوله تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ 15 فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ 16 ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ 17 وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ 18 فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ 19 وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ 20 وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ 21﴾(سبأ).

إنّ النتيجة المهمة التي أود أن أصل إليها من هذا العرض الموجز ل"**خطة الخلق العامة**"، والتي تمثل الإجابة عن السؤال المطروح عن الضرورة المعرفية، هي أن الله تعالى خلق الإنسان والكون لحكمة تقتضي بالضرورة تعرّف الإنسان على هذا الكون بظواهره الطبيعية والإنسانية. وكل ذلك يتم من خلال التفاعل الحتمي بين النفس البشرية وبين الكون المحسوس ممثلاً في عنصري المال والبنين.

إذن هناك ضرورة معرفية، وقدْر ضروري من المعرفة لابد للبشر من الحصول عليه. ولكن تبقى الإجابة عن السؤال الأهم وهو: أي نوع من المعرفة؟ وكيف السبيل إليها؟ وما الغرض منها؟ الإجابة عن هذه الأسئلة تقتضي التعرّف على النموذج المعرفي الشامل الثاوي في القرآن الكريم، من خلال أركان المعرفة الخمسة: (المصدر، المحتوى، العالِم، المنهجية، المقصد).

الفصل الرابع
النظام المعرفي الشامل المستنبط من القرآن

رؤية القرآن لعالم الاجتماع الإنساني والنظام المعرفي الشامل الذي استنبطناه منها يحتوي على نظامين معرفيين هما: النظام المعرفي التوحيدي المنبثق عن رؤية العالم التوحيدية المعبرة عن خيار "**الدار الآخرة**"، والنظام المعرفي الدنيوي المنبثق عن رؤية العالم الدنيوية المعبرة عن خيار "**الحياة الدنيا**". إذن فالنظامين المعرفيين الذين نحن بصددهما تضرب جذورهما في "**خطة الخلق العامة**" من حيث قيامهما على ثنائية النفس البشرية المذكورة آنفا. وهكذا نجد أن النفس بثنائيتها القائمة على دوافع التقوى والفجور هي الحلقة التي تربط بين "**خطة الخلق العامة**" وبين نظرية المعرفة التي نحن بصددها.

والآن نحاول، إن شاء الله، إبراز أهم الخصائص التي تميز كلا من النظامين المعرفيين(التوحيدي، الدنيوي) وذلك من خلال أركان العلم(المعرفة) الخمسة التي ذكرناها آنفاً.

1.4- النظام المعرفي التوحيدي

1.1.4- مصدر العلم

هناك ثلاثة مصادر في النظام المعرفي التوحيدي أحدها أوّلي والآخران من دونه. أما المصدر الأول للعلم فهو الله سبحانه وتعالى، وهو مصدر كل شيء كما قال عن نفسه: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

16﴾(الرعد)؛ ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ 21﴾(لحجر)؛ ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ 53﴾(النحل)؛ ﴿اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ 255﴾(البقرة)؛ (وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ 78﴾(النحل)؛ ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ 5﴾(العلق).

أما المصدران اللذان من دون الله فهما: الوحي(القرآن، السنة)، والكون المحسوس(عالم الشهادة)، حيث جعلهما الله تعالى مستقراً ومستودعا لكل العلوم التي يحتاجها البشر في حياتهم الدنيا.

(أ) الله جل جلاله

أما كيف يكون الله تعالى مصدراً مباشراً للعلم البشري فإنما يتم ذلك بثلاث طرق ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ 51﴾(الشورى). هناك ثلاث مراتب في هذه الصلة المباشرة بين المصدر الأوّلي للعلم(الله) وبين المتلقي(الإنسان) لا تكون إلا للأنبياء، نذكر بصددها ما قاله الإمام إبن قيم الجوزية في كتابه "مدارج السالكين"، الجزء الأول:

"**المرتبة الأولى:** مرتبة تكليم الله عز وجل لعبده يقظة بلا واسطة، بل منه إليه. وهذه أعلى مراتبها، كما كلم الله موسى بن عمران، صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه. قال الله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا

164﴾(النساء)، فذكر في أول الآية وحيه إلى نوح والنبيين من بعده، ثم خص موسى بينهم بالإخبار بأنه كلمه. وهذا يدل على أن التكليم الذي حصل له أخص من مطلق الوحي الذي ذكر في أول الآية'.

المرتبة الثانية: مرتبة الوحي المختص بالأنبياء، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا 163﴾(النساء).

المرتبة الثالثة: إرسال الرسول الملكي إلى الرسول البشري فيوحي إليه عن الله ما أمره أن يوصله إليه. فهذه المراتب الثلاث خاصة بالأنبياء، لا تكون لغيرهم'.

أما عن المراتب الأخرى في الصلة بين المصدر الأوّلي للعلم(الله تعالى) ومتلقيه(الإنسان) فيفصلها إبن القيم، رحمه الله، في ثمان درجات نجملها كالآتي نقلاً عنه:

المرتبةالرابعة: مرتبة التحديث، وهذه دون مرتبة الوحي الخاص، وتكون دون مرتبة الصديقين، كما كانت لعمر بن الخطاب، ﷺ، كما قال النبي، صلى الله عليه وسلم: "إنه كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في هذه الأمة محدث فعمر بن الخطاب".

والمحدث: هو الذي يحدث في سره وقلبه بالشيء، فيكون كما يحدث به. قال شيخنا: والصديق أكمل من المحدث، لأنه استغنى بكمال صديقيته ومتابعته عن التحديث والإلهام والكشف، فإنه قد سلّم قلبه كله وسره وظاهره وباطنه للرسول، ﷺ، فاستغنى به عما منه'.

المرتبة الخامسة: مرتبة الإفهام، قال الله تعالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ 78﴾(الانبياء). فالفهم نعمة من الله على عبده، ونور يقذفه الله في قلبه يعرف به، ويدرك ما لا يدركه غيره ولا يعرفه، فيفهم من النص ما لا يفهمه غيره، مع إستوائهما في حفظه وفهم أصل معناه. فانظر إلى فهم ابن عباس، وقد سأله عمر، ومن حضر من أهل بدر وغيرهم عن سورة (إذا جاء نصر الله والفتح)، وما خص به ابن عباس من فهمه منها: إنها نعي الله سبحانه نبيه إلى نفسه، وإعلامه بحضور أجله، وموافقة عمر له على ذلك، وخفائه عن غيرهما من الصحابة، وابن عباس إذ ذاك أحدثهم سنا. وأين تجد في هذه السورة الإعلام بأجله لولا الفهم الخاص؟ ويدق هذا حتى يصل إلى مراتب تتقاصر عنها أفهام أكثر الناس، فيحتاج مع النص إلى غيره، ولا يقع الاستغناء بالنصوص في حقه. وأما في حق صاحب الفهم فلا يحتاج من النصوص إلى غيرها'.

المرتبة السادسة: مرتبة البيان العام. وهو تبيين الحق وتمييزه من الباطل بأدلته وشواهده وأعلامه، بحيث يصير مشهوداً للقلب كشهود العين للمرئيات. وهذه المرتبة هي حجة الله على خلقه التي لا يعذب أحدا ولا يضله إلا بعد وصوله إليها. قال الله تعال: ﴿وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ 115﴾(التوبة).

فهذا الإضلال عقوبة منه لهم، حيث بين لهم، فلم يقبلوا ما بينه لهم، ولم يعملوا به.

المرتبة السابعة: البيان الخاص. وهو البيان المستلزم للهداية الخاصة، وهو بيان تقارنه العناية والتوفيق والاجتباء، وقطع أسباب الخذلان وموادها عن القلب، فلا تتخلف عنه الهداية البتة. قال تعالى في هذه المرتبة:﴿إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ37﴾(النحل)، وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ 56﴾(القصص).

المرتبة الثامنة: مرتبة الإسماع، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ 23﴾(الانفال)، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاء وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ 22﴾(فاطر). وهذا الإسماع أخص من إسماع الحجة والتبليغ. فإنّ ذلك حاصل لهم، وبه قامت الحجة عليهم. لكن ذاك إسماع الآذان، وهذا إسماع القلوب. فإن الكلام له لفظ ومعنى، وله نسبة إلى الأذن والقلب وتعلق بهما. فسماع لفظه حظ الإذن، وسماع حقيقة معناه ومقصوده حظ القلب، فإنه سبحانه نفى عن الكفار سماع المقصود والمراد الذي هو حظ القلب، وأثبت لهم سماع الألفاظ الذي هو حظ الأذن في قوله: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ 2 لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ 3﴾(الأنبياء). وهذا السماع لا يفيد السامع إلا قيام الحجة عليه. وأما مقصود السماع وثمرته والمطلوب منه فلا يحصل مع لهو القلب وغفلته وإعراضه، بل يخرج السامع قائلاً للحاضر معه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ 16﴾(محمد).

المرتبة التاسعة: مرتبة الإلهام، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا 7 فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا 8﴾(الشمس). وقال النبي، ﷺ، لحصين بن منذر الخزاعي لما أسلم: "قل اللهم ألهمني رشدي، وقني شر نفسي". ويقول ابن القيم موضحاً الفرق بين التحديث والإلهام: التحديث أخص من الإلهام فإن الإلهام عام للمؤمنين بحسب إيمانهم فكل مؤمن فقد ألهمه الله رشده الذي حصل له بالإيمان. فأما التحديث فالنبي، ﷺ، قال فيه:

"إن يكن في هذه الأمة أحد فعمر"، يعني من المحدثين. فالتحديث إلهام خاص، وهو الوحي إلى غير الأنبياء، أما من المكلفين، كقوله تعالى: (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾(7القصص)، وقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ 111﴾(المائدة)، وأما من غير المكلفين كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ 68﴾(النحل). فهذا كله وحي إلهام.

ويذكر ابن القيم أنّ المعرفة من الله بواسطة الإلهام: بأن يخاطبه الملك خطاباً جزئياً فإن هذا يقع لغير الأنبياء. وهو نوعان: أحدهما، خطاب يسمعه بأذنه، وهو نادر بالنسبة إلى عموم المؤمنين. والثاني، خطاب يلقى في قلبه يخاطب به الملك روحه، كما في الحديث المشهور: "إن للملك لمة بقلب ابن آدم، وللشيطان لمة. فلمة الملك: إيعاد بالخير، وتصديق بالوعد. ولمة الشيطان: إيعاد بالشر وتكذيب بالوعد"، ثم قرأ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ 268﴾ (البقرة)، وقال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ

فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ 12﴾(الأنفال)، قيل في تفسيرها: "قووا قلوبهم وبشروهم بالنصر". وفي الحديث عن النواس بن سمعان عن النبي، صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى ضرب مثلاً صراطاً مستقيما، وعلى كنفتي الصراط سوران لهما أبواب مفتحة.." إلى قوله: "والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مؤمن". فهذا الواعظ في قلوب المؤمنين هو الإلهام الإلهي بواسطة الملائكة'.

المرتبة العاشرة:الرؤيا الصادقة: وهي من أجزاء النبوة كما ثبت عن النبي، ﷺ: "الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة".

والرؤيا: مبدأ الوحي، وصدقها بحسب صدق الرائي. وأصدق الناس رؤيا أصدقهم حديثاً. وهي عند اقتراب الزمان لا تكاد تخطيء، كما قال النبي، ﷺ. وذلك لبعد العهد بالنبوة وآثارها، فيتعوض المؤمنون بالرؤيا. وأما في زمن قوة نور النبوة ففي ظهور نورها وقوته ما يغني عن الرؤيا.

ونظير هذه الكرامات التي ظهرت بعد عصر الصحابة، ولم تظهر عليه، لاستغنائهم عنها بقوة إيمانهم، واحتياج من بعدهم إليها لضعف إيمانهم. وقال عبادة بن الصامت: "رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في المنام "، وقال النبي، ﷺ: "لم يبق من النبوة إلا المبشرات "، قيل وما المبشرات يا رسول الله؟ قال: الرؤيا الصالحة، يراها المؤمن، أو ترى له". وإذا تواطأت رؤيا المسلمين لم تكذب.

والرؤيا كالكشف، منها رحماني، ومنها نفساني، ومنها شيطاني. وقال النبي، ﷺ: "الرؤيا ثلاثة: رؤيا من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث به الرجل نفسه في اليقظة فيراه في المنام".

والذي هو من المعرفة الإسلامية: الرؤيا التي من الله خاصة، ورؤيا الأنبياء وحي، وأما رؤيا غيرهم فتعرض على الوحي الصريح، فإن وافقته وإلا لم يعمل بها.

ومن أراد أن تصدق رؤياه فليتحر الصدق وأكل الحلال، والمحافظة على الأمر والنهي. ولينم على طهارة كاملة مستقبلاً القبلة، ويذكر الله حتى تغلبه عيناه. فإنّ رؤياه لا تكاد تكذب البتة. وأصدق الرؤيا: رؤيا الأسحار، فإنه وقت النزول الإلهي واقتراب الرحمة والمغفرة ، وسكون الشياطين.

وللرؤيا ملك موكل بها، يريها العبد في أمثال تناسبه وتشاكله، فيضربها لكل أحد بحسبه. وقال مالك: الرؤيا من الوحي وحي، وزجر عن تفسيرها بلا علم، وقال: أتتلاعب بوحي الله؟"

إنتهى نقلنا عن الإمام إبن القيم وبه ينتهي حديثنا عن المصدر الأول من مصادر المعرفة في النموذج التوحيدي. ولكن لما كان الله، سبحانه وتعالى، إنما خلق الإنس لعبادته، وأنّ عبادته تقتضي العلم به للقيام بحقّه، ولما كان الله، سبحانه وتعالى، لا يدركه عباده مباشرة بحواسهم، فقد جعل من دون ذلك مصدرين معرفيين هما القرآن الكريم والكون المحسوس. ومن خلال هذين المصدرين المعرفيين قام التكليف من الله للبشر، وبحجتهما يتم الجزاء في الدار الآخرة.

(ب) الوحي الكريم

القرآن الكريم هو كلام الله تعالى الذي أنزله على رسوله، صلى الله عليه وسلم. وهو كله علم قطعي الثبوت لقوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ 42﴾(فصلت)؛﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ 9﴾(الحجر). ولأن القرآن الكريم علم في كل شيء لقوله سبحانه وتعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ

يُحْشَرُونَ 38﴾(الأنعام)، فإنه من هذا الوجه مصدر لا مثيل له للكليات والمسلمات العلمية اليقينية اللازمة لنشأة العلوم بشقيها الطبيعي والاجتماعي، ولمنهجيتها كذلك. ذلك أن أحد أهم مشاكل العلوم الحديثة، طبيعية كانت أم اجتماعية، هو عدم يقينها من المسلمات الكلية الأولية التي تقوم عليها، وعدم وجود منهجية قادرة على توفير هذا اليقين. لذلك تظل كل المقولات العلمية النظرية والتطبيقية ظنية، ولكن إذا كان لدينا مصدر(القرآن الكريم) يحتوي على مثل هذه المسلمات الكلية اليقينية فإنه بإمكاننا من حيث المبدأ، إن تمكنا من استنباطها منه، أن نؤسس عليها قاعدة علمية يقينية لا ظنية تقوم عليها علومنا الطبيعية والإنسانية. إلا أن الظن قد يأتي من فهمنا للنصوص، والذي قد لا يطابق حقيقة النص القرآني، وقد يأتي الظن من المنهجية التي سوف تتبع في استنباط هذه المسلمات الكلية. ولكن كل هذه الاحتمالات يمكن الاحتياط لها بتدابير تمكن من إجماع على مدلول النص، ومن ثم مضمون المسلمات العلمية المستنبطة.

القرآن الكريم يمكن، أيضاً، أن يلهم المتدبر له من أهل العلم فرضيات علمية، سواء كانت سنن اجتماعية أم قوانين طبيعية، تماما كما يلهم الأحكام الشرعية لأهل العلم الشرعي. وكلما تراكمت الأدلة القرآنية المؤيدة للفرضية العلمية كلما زاد ذلك من مصداقيتها العلمية، حتى قبل أن تأتي مرحلة التثبت التجريبي.

ورغم أنّ القرآن علم وكلام مقروء بلسان عربي مبين إلا أن آياته هي في ذاتها أعيان تماماً كمفردات الكون المحسوس، وهي في مجموعها كل مترابط بحيث تمثل كتابا أُحكمت آياته ثم فصلت، فهو بذلك نظام معرفي مغلق مكتفٍ بذاته. لذلك فآياته تحتاج إلى دراسة وفهم، من خلال

بيئتها الداخلية ومن خلال علاقاتها البينية، لسبر أغوارها واستنباط ما تيسر من مخزونها العلمي، ومن ثم تحتاج إلى منهجية بحثية كما تحتاج دراسة الكون المحسوس إلى ذلك. كذلك فإن لغة القرآن، وإن كانت عربية، إلا أنها لغة علمية مفاهيمية تطابق يقينا المضمون المعرفي الذي تنقله عن الكون الخارجي، بشقيه الطبيعي والاجتماعي، ومن ثم فهي لا تعاني الإشكالات التي تعاني منها لغة الناس العادية في دورها كناقل للتصورات الوجودية، تلك الإشكالات التي جعلت الفلاسفة في الغرب لعهد ما بعد الحداثة يجزمون باستحالة معرفة البشر للوجود على حقيقته، ومن ثم جاءت الدعوة إلى النسبية وقبول واحتمال تعدد تصورات البشر الوجودية على سواء.

وما قلناه عن القرآن كمصدر من مصادر المعرفة الإسلامية ينطبق على السنة النبوية الصحيحة، إلا أنها ليست مصدرا موازيا للقرآن، بل هي دونه ومبينة له: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ 44﴾(النحل)؛ ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ64﴾(النحل)، وتنضبط به متنا. والقرآن والسنة يمثلان مدخلا لابد منه لمعرفة عالم الشهادة بالطريقة التي تمكّن من القيام بمقتضى الحكمة التي من أجلها خُلق الإنسان والكون، كما أجملناها سابقاً في "**خطة الخلق العامة**". كذلك إذا استثنينا المصدر الأوّلي(الله تعالى) فإنّ القرآن والسنة هما مصدرنا الوحيد لعلم الخبر عن الغيب، وللعلم المتعلق بمجال القيم والتفضيلات في عالم الشهادة.

(ج) عالم الشهادة:

الكون المشاهد بكل عناصره، المادية والحيوية والاجتماعية والمعنوية، مصدر أساس من مصادر المعرفة التوحيدية، والدليل على ذلك

نجده في طبيعة "**خطة الخلق العامة**"، التي تقتضي تعامل الناس مع هذا الكون. كذلك نجده في آيات كثيرة من القرآن الكريم تحث الناس على التفكر في خلق السموات والأرض، وما بث الله، سبحانه وتعالى، في ثناياها من آيات دالة على عظمته، وانفراده بالخلق والتدبير. والعلم من هذا المصدر له مهمّتان، إحداهما **عقدية** من حيث دلالة الخلق على الخالق، والفعل على الفاعل، باعتبار الكون بشواهده المجلّوة آيات تؤدي إلى الإيمان بالله فاطر السماوات والأرض، وإلى الاعتبار بأقداره وسننه في الناس، أفرادا وجماعة. والمهمة الثانية **وظيفية** باعتبار دور العلم في الكشف عن أسباب السماوات والأرض التي يتأسس عليها العمران، ويتحقق بها الاستخلاف.

2.1.4 – محتوى العلم

المرتكز الثاني للقضية المعرفية هو نوع العلم الذي ينبغي أن يمدنا به النظام المعرفي التوحيدي. ويمكن أن نقول بصورة عامة إنّ نوع العلم المطلوب يحدده المقصد من خلق الإنسان، وهو كما جاء في القرآن عبادة الله تعالى، أي العلم به، والقيام بأمره ونهْيه في أرضه، بمقتضى شرعه. إذن العلم التوحيدي المطلوب هو ذلك الذي يتعرّف الإنسان به على خالقه من خلال خلقه، أو كلامه، و يهتدي به إلى الحكمة من خلق الإنسان والكون، ومن ثم يعينه على العمل بمقتضى تلك الحكمة: ﴿وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ 78﴾(النحل)؛ ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ 78)(المؤمنون)؛ ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ 9﴾(السجدة)؛ ﴿ قُلْ

هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ 23﴾(الملك).

إذن، الحكمة الأولية من العلم، ومن تزويد الإنسان بأدوات تحصيله(السمع ،البصر، الفؤاد) كما يبينها القرآن، هي التحقق بالشكر لله تعالى في عمارة الأرض، عملا صالحا في زينة الحياة الدنيا(المال،البنون)، وهو المعنى العملي للإيمان.

ولكن الضرورة البديهية تقتضي أن يكون ابتداء هذا العلم وحياً من الله تعالى، حتى يحيى من حيّ عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً 15 ﴾(الإسراء)؛ ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا 165﴾(النساء)؛ ﴿وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ 115﴾(التوبة). وهكذا أنزل الله تعالى القرآن الكريم كتابا يحوي تفاصيل بعضٍ من هذا العلم التوحيدي، والبعض الآخر من العلم جاء القرآن الكريم بتوضيح طبيعته وتحديد مفاتحه في شكل كليات ينبغي أن تؤسس عليها تفاصيل ذلك العلم. أما التفاصيل هذه فقد تُركت لكسب العقل البشري في إطار تطوره التاريخي، لأن ذلك ميدان الامتحان الذي تقوم عليه "**خطة الخلق العامة**": ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ 14﴾(يونس).

ما هي إذاً العلوم التوحيدية التي يعبر عنها متغير العلم في النظام التوحيدي في إطار **خطة الخلق العامة؟** ما يلي هو جهد المقل، والله سبحانه المستعان وعليه التكلان، وفوق كل ذي علم عليم.

لا شك أن أول ما يتبادر إلي الذهن هو ما يمكن تسميته "**علم العلم**" الذي يدرس قضايا المحور الأول المذكور أعلاه. ثم ماذا بعد ذلك؟ فلنرجع

إلي الدالتين التوحيدية والدنيوية اللتين تلخصان **خطة الخلق العامة** ولنتأمل بإيجاز وإجمال أنواع العلوم المطلوبة لتتحقق بالإنسان حكمة الخالق من الخلق. إذا تفكرنا في الدالة التوحيدية نجد أن الله تعالى قد جعل العلم هو السبيل الوحيد إلى الإيمان به وتوحيده: ﴿شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ 18﴾(آل عمران)؛ ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ 19﴾ محمد19. يقتضي هذا نشأة علوم التوحيد التي تقوم بالاستدلال من الوحي على الموحي ومن الخلق على الخالق تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا 82 ﴾(النساء)؛ ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ 53﴾(فصلت). وهي في الجملة تأتلف من علوم نقلية وعقلية وكونية، ولها مداخلها في القرآن الكريم، وينبغي تأسيس تلك العلوم على هذه المداخل حتى تؤدي وظيفتها المطلوبة كأدلة إيمان بالله الواحد.

ثم إذا نظرنا إلي زينة الحياة الدنيا"المال،البنون" كنعم كُلّفنا بالانتفاع وعمران الأرض بها وتأدية شكرها، لزم من ذلك علوم كونية تمكّن من معرفة خصائص تلك النعم التي بها ذُلّلت للإنسان وسُخّرت بما يمكّن من الانتفاع بها وتحقيق الحكمة من خلقها. هذه العلوم الكونية الوظيفية أيضاً لها مداخلها في القرآن، وينبغي تأسيسها على تلك المداخل، ويمتد مداها لتشمل علوم الفلك والفضاء حتى يتحقق مغزيان، الأول؛ ابتلاء الإنسان في عمله ومجاله السماوات والأرض: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ

7﴾(هود). والثاني؛ وهو مرتبط بالمغزى الأول، تسخير ما في السماوات وما في الأرض جميعا للإنسان، لأن التسخير يقتضي التمكين: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ 20﴾ (لقمان)؛ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾13(الجاثية).

فإذا جئنا إلي المنعَم عليه"الإنسان" فهناك نوعان من العلوم يتعلقان به، أولها العلوم التي تتعلق بدراسته ككائن حي– نفساً وجسداً– لمعرفة خصائصه النفسية والحيوية والفيزيائية التي تمكّن من تحديد العلاقة النفعية المثلى بينه وبين زينة الحياة الدنيا، بما يحفظ عليه حياته ويحفظ التوازن الكلي للبيئة. لقد أنبت الله تعالى في الأرض من كل شيء موزون، ولكن الإنسان هو الذي يقيم هـذا الوزن بالقسط، أو يخسره: ﴿وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ 7 أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ 8 وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ 9﴾(الرحمن)؛ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ 25﴾(الحديد)؛ ﴿وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ 31﴾(الأعراف)؛ ﴿قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ 85﴾(الأعراف).

ثم هناك العلوم المتعلقة بالإنسان ككائن مُكلّف في إطار مجتمعي، وهى علوم بعضها معياري يتعلق بدراسة المقاصد التي يريد الخالق من الإنسان تحقيقها، والأحكام الشرعية التي عليه الالتزام بها ليتمكن من تحقيق تلك المقاصد، وهي عموماً العلوم التي تحكم ميزان التفاعل بين المتغيرات الثلاثة "النفس،المال،البنون"، والإطار المجتمعي المتولد عن هذا

التفاعل، ومنها علوم المقاصد وعلوم الفقه، بما يحقق شكر النعمة. وبعض هذه العلوم يتعلق بالأخلاق وبتزكية النفس وتربيتها، في إطار فهمنا لأخلاق التقوى والفجور، وتفاعلها مع الابتلاء الثاوي في زينة الحياة الدنيا. وهي جميعها علوم معيارية تتعلق بحفظ نظام الاجتماع التوحيدي، من جانب الوجود، في مسار التوحيد على الدوام.

ولكن تفاعل المجتمع بمقتضى المقاصد والأحكام والسياسات الشرعية، وأخلاق التقوى، ومحاولة المكلفين توفيق أوضاعهم لتصبح مقاصدهم وأفعالهم وتدافعهم وفق ما جاء به الشرع، أي تأسيس الاجتماع التوحيدي على مبدأ تعظيم الإيمان بتعظيم العمل الصالح(الدالة التوحيدية)، يؤدي بعد حين إلي ظهور أنماط من السلوك والعادات الراشدة الراتبة"Righteous Regularities"، تنجم عنها بالضرورة ظواهر اجتماعية تكون أحد الأسباب الداعية إلي نشأة علوم اجتماعية توحيدية تهتم بدراسة تلك الظواهر. وهذه الظواهر الاجتماعية هي البشير الذي يدل علماء ومنفذي السياسات الشرعية على اتجاهات المجتمع، ومن ثم على ثمار تصوراتهم الكلية وخططهم العلمية وبرامجهم التنفيذية. ورغم أن هذه الأنماط السلوكية الراشدة الراتبة لا تمثل سننا ثابتة في ذاتها، إلا أنها بانتظامها هذا تمثل العامل الحاسم في تحقيق سنن الله الاجتماعية الجالبة للنفع بإذن الله، التي تتفعّل بالفعل الراشد يأتي به المؤمن، أفرادا وجماعة. من هذه السنن **سنة الشكر**: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ 7﴾(إبراهيم)؛ ومنها **سنة الهداية**: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ 69﴾(العنكبوت)؛ ومنها **سنتيْ الفرَج والحسْب**: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا 2 وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا 3﴾(الطلاق)؛

ومنها سنة **الحياة الطيبة:** ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ 97﴾(النحل)؛ ومنها أم السنن الاجتماعية، وهي **سنة الابتلاء والفتنة:** ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ 7﴾(هود)؛ ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ 2﴾(الملك)؛ ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ 28﴾(الأنفال)؛ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ 35﴾(الأنبياء)؛ ﴿وَما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا 20﴾(الفرقان)؛ ومنها **سنة النصر:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ 7﴾(محمد)؛ ومنها **سنة التدافع:** ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ 251﴾(البقرة)..الخ.

هذه العلوم الاجتماعية المؤسسة على معطيات النظام التوحيدي منها الوصفي والبعض الآخر معياري، ولكن يجب أن تؤسس جميعها على المفهوم القرآني للسنن الاجتماعية، فهي قوانين ربانية يدخل في دائرة عملها الإنسان بفعله فتتفعّل وتتحقق نتائجها في الواقع الاجتماعي والطبيعي، ولو بعد حين؛ فهي لا تتخلف أبدا، متى ما تحققت شروطها، تماما كالقوانين الطبيعية: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا 62﴾(الاحزاب)؛ ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا 62﴾(الفتح)؛ ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ

كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ 137﴾(آل عمران)؛ ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ 6﴾(الروم).

وتعريفنا للسنة الاجتماعية كما وردت في القرآن الكريم هو أنها:

" ***كل فعل إرادي راتب يأتي به الفرد، أو الجماعة فيهيمن عليه ويصدّقه فعل إلهي مناسب له لينتهي به إلى نتائج يقدّرها الله تعالى قد تكون مطابقة، أو مخالفة لما قصده الفرد، أو الجماعة من الفعل، وقد يخص تأثيرها الفرد، أو يعم كل، أو بعض الجماعة***".

وحتى تكتمل الخارطة الكلية للعلم الإسلامي في مجال السنن الاجتماعية سوف نستدعي هذه الجزئية من النموذج المعرفي الدنيوي الذي سوف يرد الحديث عنه لاحقا، وقد قلنا من قبل إن العلم الذي ينتجه هذا النموذج في مجال الاجتماع الإنساني هو جزء أصيل من العلم الإسلامي لأنه يتعلق بحفظ مجتمع التوحيد(الدين) من جانب العدم. إذا نظرنا إلي الدالة الدنيوية فسوف نتبين أمرين هامين فيها، أولهما، بجانب كونها أساس النموذج الدنيوي، أنها دالة قوية الحضور والتأثير في مقاصد وسلوك المكلّف المسلم، ومن ثم في المجتمع المسلم، وذلك بمقتضى الفطرة الإلهية المتجلية في خطة الخلق العامة. بل إن الواقع التاريخي للمسلمين يقول إن تأثير هذه الدالة أكبر بكثير على مجرياته، أفرادا وجماعة، من الدالة التوحيدية. لذلك نجد أن الواقع التاريخي لأي مجتمع إسلامي يعبر في حقيقته عن أثر التدافع بين الدالة التوحيدية والدالة الدنيوية على أحواله، أفرادا وجماعة، بحيث يميل ذلك الواقع أكثر إلى تجليات النموذج الدنيوي، في الزمان والمكان، عندما يغلب أثر الدالة الدنيوية على شئونه، والعكس صحيح. فهو دائما مجتمع خليط، لا توحيدي خالص ولا دنيوي خالص. الأمر الثاني هو أن هناك مجتمعات دنيوية"علمانية"، هي غالب

المجتمعات البشرية عبر التاريخ، تنشأ على معطيات هذه الدالة، وتكون ذات تأثير وتأثر بالواقع الاجتماعي لأهل التوحيد الذي ينجم عن التجلّي التاريخي للدالة التوحيدية، سواء كان هذا الواقع مجتمعا إسلاميا مستقلا، أو أفرادا وجماعات إسلامية تعيش في المجتمع الدنيوي المعني، أو أفرادا وجماعات دنيوية تعيش في المجتمع الإسلامي. ونعبّر عن هذا بقولنا إن الدالتين تتزاحمان بوقعهما في الزمان والمكان؛ وهو تزاحم صراعي في الغالب، ولكنه قد يكون **صراعاً عنيفاً حاسماً**: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ 4﴾(الممتحنة)؛ وقد يكون **صراعاً حذراً**: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ 87﴾(الأعراف)؛ وقد يكون **صراعاً جدلياً** ينتهي نهاية دراماتيكية: ﴿وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ 29 وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ 30 وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خَيْرًا اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ 31 قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتَنِا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ 32 قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللّهُ إِن شَاء وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ 33 وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ 34 أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرَمُونَ 35 وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن

يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ 36 وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ 37﴾(هود)؛ وقد يكون **صراعا باردا** يعتمد على الكر والفر والمكر: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا 60﴾(الأحزاب)؛ وقد يكون **صراعاً شاملاً مستداماً:** ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ 217﴾(البقرة).

وبسبب من هيمنة هذه الدالة على زمرة الفعل في النموذج الدنيوي، وأثرها القوي على زمرة الفعل في النموذج التوحيدي، فسوف تكون هناك أفعال عقلانية راتبة(Rational regularaties)، ولكنها غير راشدة، تتأسس على مبدأ تعظيم متاع الحياة الدنيا، تؤدي إلى بروز ظواهر اجتماعية على شاكلتها في المجتمعين. لذلك لابد أن تبنى علومنا الاجتماعية الإسلامية، ليس فقط على قواعد الدالة التوحيدية، بل أيضاً على قواعد الدالة الدنيوية، إن أردنا الإحاطة العلمية بالظاهرة الاجتماعية، عبر الزمان والمكان، أي إن أردنا صفتيْ الموضوعية والعالمية لعلومنا الاجتماعية الإسلامية. وسوف تحكم هذا الجانب من العلم الاسلامي السنن الاجتماعية الجالبة للضر بإذن الله، حيث يدخل المسلم وغير المسلم دائرة تأثيرها بعمله غير الراشد(الفاسد) فتتفعّل بوقعها الضار على حياة الفرد حصرا أحيانا، ويعم ضررها بيئة الطبيعة والمجتمع أحايين أخرى. وقد عرّفت السنة الاجتماعية سابقا فقلت إنها:

"كل فعل إرادي راتب يأتي به الفرد أو الجماعة فيهيمن عليه ويصدّقه فعل إلاهي مناسب له لينتهي به إلى نتائج يقدّرها الله تعالى قد

تكون مطابقة أو مخالفة لما قصده الفرد أو الجماعة من الفعل، وقد يخص تأثيرها الفرد أو يعم كل أو بعض الجماعة".

من هذه السنن **سنة الكفر:** ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ 7)(إبراهيم)؛ ومنها **سنة المعيشة الضنكة:** (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى 124﴾(طه)؛ ومنها **سنةالإعشاء:** ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ 36﴾(الزخرف)؛ ومنها **سنة الاستدراج:** ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ 55 نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ 56﴾(المؤمنون)؛ ومنها **سنة الإحاقة:** ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا 43﴾(فاطر)؛ ومنها **سنة المحق:** ﴿يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ 276﴾(البقرة)..الخ.

ومن رحمة الله بعباده أنّ الناس يمكنهم الفرار، بأعمالهم، من سنن الله الجالبة للضر إلى سنن الله الجالبة للنفع، قبل فوات الأوان؛ أي، الفرار من قدر الله إلى قدر الله، كما هو معلوم من قصة أمير المؤمنين عمر الفاروق، ﷺ، في موقفه من وباء الطاعون الذي أصاب بعض ديار المسلمين في عهده: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ 50﴾(الذاريات). ولأنّ سنن الله الاجتماعية مرهون تحققها بأعمال الناس الإرادية، ولأنّ هذه الأعمال هي في حال تغير دائم بين الصلاح والفساد، على مستوى الفرد والجماعة، وقد تغلب أعمال الصلاح أحيانا، وقد تغلب أعمال الفساد، من حيث الكم والنوع، ولما كان تقدير كل ذلك علمه عند الله تعالى، فإنّ معرفة زمان ومكان ومدى تحقق هذه السنن، وما يترتب علي ذلك من مصالح أو مفاسد تصيب الناس، أمر يعسر ضبطه علميا،

ولعل هذا من رحمة الله بالناس حتى لا يأمنوا مكره، بل يكونوا في حال من الترقب والحذر الدائم: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ 96 أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ 97 أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ 98 أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ 99 أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ 100﴾(الأعراف).

ولكن أحوال الأفراد والمجتمعات، والمصائب التي تصيبهم أو تحل قريباً من دارهم، أو البركات التي تفتح عليهم من السماء والأرض، آيات تؤشر إلى اتجاه عمل تلك السنن، وفي هذا الإطار يأتي دور العلوم الاجتماعية في دراسة تلك الأحوال والظواهر الاجتماعية، وربطها بأعمال الناس الراتبة(Regularities)، وتصنيف هذه الأعمال من حيث صدورها عن النموذج التوحيدي أو النموذج الدنيوي، وربطها من ثم بما يناسبها من السنن الاجتماعية المستنبطة من الوحي، أو من التاريخ(الواقع الاجتماعي)، بغرض استخلاص الآيات والعبر، ووضع السياسات الشرعية وتوفيق الأوضاع الاجتماعية، بما يؤدي إلى استدامة الصلاح، أو تدارك الفساد. إن الوحي الكريم، قرآنا وسنة، ثري بالسنن الاجتماعية الإلهية التي تغطي جميع جوانب الظاهرة الاجتماعية، ويجب استخلاص تلك السنن وتصنيفها والإفادة منها في تأسيس العلوم الاجتماعية الإسلامية.

وعلى أساس من معطيات هاتين الدالتين المعبرتين عن النموذجين المعرفيين، وعلى أساس من التفاعل بينهما في إنتاج الاجتماع الإنساني بكل تجلياته عبر التاريخ تتأسس علوم التاريخ والعلاقات الدولية وغيرها من العلوم المعنية بالاجتماع الإنساني في جملته، وفي ديناميته.

ما اصطلحنا على تسميته في هذا البحث بالنظام المعرفي المستنبط من القرآن المتعلق بالظاهرة الاجتماعية يؤكد أن مبتدأ العلم التوحيدي لهذه الظاهرة لا بد أن يكون الوحي الكريم، ذلك أن المبدأ الكلي الأساس الذي تقوم عليه الدالة التوحيدية، ألا وهو تعظيم الإيمان بتعظيم العمل الصالح، المحقق للشكر في زينة الحياة الدنيا، الذي يضرب بجذوره في عالمي الغيب والشهادة، ما كان له أن ينشأ من المجال الكوني والعقلي وحدهما. وقد يقول قائل إن المبدأ الكلى الثاني(تعظيم متاع الحياة الدنيا) الذي تقوم عليه الدالة الدنيوية، التي هي أصل من أصول النظام المعرفي المذكور، قد أمكن اكتشافه من خلال النظر في المجال الكوني وحده، كما هو معروف في العلوم الاجتماعية الغربية. ولكن نؤكد أن هذا المبدأ، الذي يقوم عليه غالب العلوم الاجتماعية الغربية، هناك من الشواهد التي تفنّده بقدر تلك التي تؤيده، مما يضعف مركزه كمبدأ تقوم عليه العلوم الاجتماعية. ولكن هذا المبدأ يأخذ قيمته العلمية عندما يكون منشأه الوحي، الذي هو علم يقيني من الله تعالى، ولن يلعب دوره الحقيقي في بناء العلم الاجتماعي إلا في إطار المنظومة المعرفية القرآنية المبينة لعلاقته بالمبدأ الأول(تعظيم العمل الصالح) في إطار **خطة الخلق العامة**. إن استبعاد الوحي كمصدر للعلم الاجتماعي في النموذج الدنيوي الوضعي الغربي غيّب السنن الاجتماعية الربانية المرتبطة بأعمال الناس الإرادية المنطلقة من مبدأ تعظيم متاع الحياة الدنيا، ولم يبق للنموذج إلا الأفعال الإرادية الراتبة التي فعّلت تلك السنن، وآثارها من الظواهر الاجتماعية التي تهتم بدراستها العلوم الاجتماعية للنموذج. ولهذا السبب فإن النموذج الدنيوي فقير جدا في المعلومات المتعلقة بالاجتماع الإنساني مما لا يسمح بإنشاء علوم اجتماعية حقة تستوفي شروط العلم. وعبثا يحاول النموذج المعرفي

الوضعي الغربي، باستخدام منهج العلوم الطبيعية، ربط الظواهر الاجتماعية بتلك الأفعال الراتبة في علاقة سببية بغية تفسيرها والتنبؤ بحدوثها. ولكن لما كانت الأسباب المفسِّرة إن هي إلا أفعال بشرية إرادية، يمكن الإتيان بنقيضها أو بغيرها من ذات الفاعلين، كما إنها مجرد حلقة في سلسلة السببية السننية الاجتماعية، فإن من السهولة دحض العلاقة السببية أو القانون الاجتماعي المزعوم. ولعل في قوانين العرض والطلب الاقتصادية، وهي القوانين الأشهر في علم الاقتصاد الغربي، خير دليل على ما ندعيه، فقد ترتب على قانون تعظيم المتاع الدنيوي، باعتباره القانون العام الذي يفسر جملة الفعل الاقتصادي، أن البائعين في السوق، الذين يمثلون جانب العرض، يسعون دائما إلى تعظيم أرباحهم، وأن المشترين، الذين يمثلون جانب الطلب، يسعون إلى تعظيم متاعهم من السلع، وتقوم الأسعار، المحددة بطريقة حرة في السوق، بحفظ التوازن بين العرض والطلب. بناء على هذا القانون إذا زاد الطلب على السلع عن عرضها، ولم يكن من الممكن الاستجابة الفورية من خلال زيادة العرض، فإن القانون يقول بزيادة الأسعار تلقائيا بالقدر الذي يمتص الطلب الزائد ويعيد التوازن بينه والعرض، والعكس صحيح. هذا القانون يعتمد في تحققه على أفعال إرادية راتبة يأتي بها البائعون والمشترون، في إطار افتراضات تتعلق بدوافعهم النفسية وأنماطهم السلوكية المستقاة من النموذج الدنيوي. وفي الظروف العادية للسوق، في إطار النموذج الدنيوي، فقد أثبت القانون مصداقية عالية في الواقع، ولكن تظل الحقيقة أنه وفي ذات الظروف العادية يمكن أن يتخلف القانون بحيث يقرر كل أو بعض البائعين بإرادتهم الحرّة بيع سلعهم بذات الأسعار القديمة رغم ارتفاع الطلب عليها، ووجود فرصة لتحقيق مزيد من الأرباح برفع الأسعار. وهناك الكثير من المبررات

الاقتصادية الموضوعية والأخلاقية التي تدفع إلى هذا النوع من الفعل، ومن ثم دحض القانون. أما في إطار النموذج التوحيدي، حيث دوافع وأنماط الفعل الاقتصادي جد مختلفة عن نظيرتها في النموذج الدنيوي، فيكفينا أن نذكر قصتين من التاريخ الإسلامي على سبيل المثال، ليتأكد لنا أن قوانين العرض والطلب لا تعدو كونها أنماط سلوك راتبة يمكنها أن تتغير إراديا في أي وقت. القصة الأولى، وهي مشهورة، تتعلق بالصحابي الجليل عثمان بن عفان، رضي الله عنه، بالمدينة المنورة وقد أقبلت عيره محملة ببضائع تجارية من بلاد بعيدة، وكانت المدينة حينها تعاني شحا في تلك السلع، مما يعني ارتفاع الطلب عليها والوضع الاحتكاري لمالكها، وهو وضع مثالي لتحقيق الأرباح بالتحكم في السعر. وجاءه قومه من تجار المدينة يهرعون إليه يطلبون شراء حمل القافلة، فأفادهم أن تاجرا واحدا قد عرض عليه عشرة أضعاف السعر الذي عرضوه. ولما رأى إنكارهم لهذا التاجر، وهم جملة تجار المدينة، أخبرهم بأنه الله سبحانه وتعالى، حيث الحسنة بعشرة أمثالها، ثم تصدق بكل حمل القافلة. القصة الثانية تروى في كتب التصوف، وتتعلق بأحد التجار من صالح المؤمنين حيث اعتاد أن يأتيه زبون محدد يشتري منه بضاعة بفلوس، فيقبض منه فلوسه ويدفع إليه بالبضاعة. وذات يوم ذهب التاجر لبعض شأنه وأقام ابنه مكانه في المتجر، وجاء الزبون المعني كالعادة فدفع بفلوسه إلى الإبن وطلب البضاعة، ولكن الإبن اليقظ سرعان ما اكتشف أن فلوس الزبون مغشوشة، فردّها إليه مع سيل من الشتائم. استرجع الزبون فلوسه وغادر مسرعا، ولما عاد الأب أخبره ابنه بالقصة، فحزن الأب من تصرف ابنه وبدا عليه الهم والغم. ولما سأله ابنه عن ذلك أخبره بأنه على علم بالفلوس المغشوشة طيلة الزمان الذي ظلت تجري فيه المعاملة مع هذا الزبون، وقد أسرّها في

نفسه ولم يبدها له، وأنه ظل يستلمها منه ثم يقوم بحفظها في مكان آمن حتى يحصر شرّ هذه الفلوس المغشوشة في تاجر واحد من سوق المسلمين، محتسبا الأجر عند الله تعالى. أما الآن فسوف يذهب هذا الزبون بفلوسه المغشوشة إلى تاجر آخر، وقد يقوم ذاك التاجر، وهو لا يعلم وقد يعلم، بتمريرها في معاملة تجارية إلى آخر، وهكذا إلى أن يعم شرّها سوق المسلمين.

منشأ العلوم الطبيعية في النموذج المعرفي التوحيدي نقدّر أنه يعود إلى أصلين: الأول؛ هو مقتضى الناتج الإيماني في **(خطة الخلق العامة)** حيث الحاجة إلى التفكّر العلمي في خلق السموات والأرض، والأسباب التي تحكمها، آيات خلق على الخالق، الثاني؛ منشؤه عمارة الأرض، الناجم عن الإقبال على زينة الحياة الدنيا، المقتضي لمعرفة أسرارها وقوانينها التي بها يمكن تسخير الطبيعة والانتفاع بمواردها، مما يمكّن من القيام بواجبات الاستخلاف على الأرض. والمسلمات القبلية لهذه العلوم ينبغي أن تأتي من الوحي الكريم، بينما قوانينها العلمية تأتي من التدبّر في الوحي والتفكّر في خلق السماوات والأرض

3.1.4- العالِم:

نقصد بالعالم هنا مجموعة الاستعدادات العقلية والوجدانية والإرادية اللازم توفرها عند الشخص الذي ينوي إنتاج العلم التوحيدي، الذي رسمنا خارطته العريضة آنفاً. ولا شك أن طالب العلم التوحيدي هو شخص يسعى، على المستوى العقلي، في طلب العلم، أولا؛ ليعقل آيات الله المجلوّة في كونه، وآياته المتلوّة في قرآنه، ليتحقق له إيمانه، ثم، ثانيا؛ لتسخير ذلك العلم للقيام بواجب الاستخلاف العمراني. وهو، ثانيا؛ يجاهد، على المستوى الوجداني، للتحقق بقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ

أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ 28﴾(فاطر). وهو شخص مدرك لمقتضى قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ 282﴾(البقرة). وهكذا فإنّ طالب العلم التوحيدي شخص مشمر للتقوى، بكل ما تقتضيه من مجاهدة وما تتطلبه من علم. وهو، ثالثا؛ على المستوى الإرادي، دائما في محرابه العلمي، سواء كانت مكتبة، أو معملا، أو حقلا، أو خلوة للتدبر والتفكر، لإنتاج العلم التوحيدي، الذي هو ميراث الأنبياء، وإتاحته للناس وبث ثقافته بينهم.

إذن فالعالم المسلم هو شخص تشكل (رؤية العالم التوحيدية) منطلقه لفهم الكون والحياة، ولهذا فإن قيم الإسلام ومقاصده الحياتية هما المعيار الذي يحدد أولويات البحث وضوابطه عنده. كذلك فهو شخص لا يدعي الحياد القيمي كباحث ولا يستطيعه تجاه قضاياه التي يبحثها، لا سيما في مجال الاجتماع الإنساني حيث الأحكام القيمية جزء أصيل من المنهج.

4.1.4- المنهجية

لأنّ هذا الركن هو أهم الأركان في إطار نظرية المعرفة، وهو أعقدها كذلك فقد رأينا أن نبدأ بإيراد عينة من الآيات القرآنية التي سوف نبني عليها ما يتبع من حديث.

(1) ﴿وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ 78﴾(النحل)؛

(2) ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً 36﴾(الإسراء)؛

(3) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ 46﴾(الحج)؛

(4) ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ 179﴾(الأعراف)؛

(5) ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا 28﴾(النجم)؛

(6) ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ 6 يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ 7﴾(الروم)؛

(7) ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ 16﴾(محمد).

لقد تحدثنا في فقرات سابقة عن مصادر العلم التوحيدي وعن محتواه وعن العالِم، وقد آن لنا أن نحدد طريق الحصول علي هذا العلم. إنّ الآية الكريمة رقم (1) تربط لنا بين العلم الذي يكتسبه الإنسان من بعد جهل وبين وسائل تحصيل ذلك العلم، ألا وهي: السمع؛ البصر؛ والفؤاد، وقد أكدت الآية رقم (2) هذه الحقيقة. ولكن العملية الإدراكية في القرآن عملية معقدة وترتبط ارتباطاً وثيقاً بمفهوم العلم فيه، وارتباط كل ذلك بمدخل الناس إلى زينة الحياة الدنيا: أهو مدخل إيماني قائم على دوافع التقوى في النفس؟ أم هو مدخل شهواني قائم على دوافع الفجور فيها؟ فمن حيث يكون إقبال الإنسان على زينة الحياة الدنيا قائما على مبدأ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ 37﴾(المؤمنون)، وهو مدخل مبرراته قيمية لا علمية، يكون قد حدد وبصورة حاسمة موقفه المعرفي كذلك. فمن الناحية المعرفية لا يتجاوز علم من كان خياره (الحياة الدنيا) معرفة ظاهرها، أي إنّ أقصى ما يصل إليه هو علم الأسباب(القوانين) الكونية. وهذا ما أشارت

إليه الآيتان (5، 6)، حيث ربط المولى سبحانه وتعالى بين التولي عن ذكره، والغفلة عن الآخرة، وبين قصر العلم على ظاهر من الحياة الدنيا، وأنّ علم من كانت الدنيا همّه لا يمكن أن يتجاوز ظاهرها. ومرد ذلك فيما يبدو لي إلى سببين: السبب الأول هو أن خيار الحياة الدنيا إنما هو خيار يقوم على اللهو واللعب؛ أي تعظيم اللذّات والمسرّات(المتاع) الدنيوية: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ 32﴾(الأنعام)؛ ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ 20﴾(الحديد). والذي تنحصر همته في تعظيم اللهو واللعب لا يحتاج في ذلك إلى أكثر من معرفة القوانين الكونية، ومن ثم توظيفها لخدمة ذلك الهدف. وعلم القوانين ووسائل تحصيله متاح للجميع، مؤمنهم وكافرهم؛ وما كان عطاء ربك محظورا. وهذه الوسائل هي في مجملها حواس الإنسان، لا سيما السمع والبصر، ثم إعمال (الفؤاد) بقواعده المنطقية في المعلومات الحسية المتحصلة للوصول إلى نتائج منطقية، وفرضيات تجريبية يمكن التأكد من صحتها عن طريق التجربة في الواقع المشاهد. أما السبب الثاني فيعود إلى أنّ من يجعلون همهم تعظيم متاع الحياة الدنيا ينشغلون بها، لاهية قلوبهم بحيث لا يفطنون إلى وجود حقيقة أخرى وراء ظاهر هذه الحياة، ومن ثم يسقطون من حسابهم أي علم متعلق بهذه الحقيقة، ونحسب أن ذلك معنى قوله تعالى: (ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى 30﴾(النجم)؛ ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢

لَاهِيَةً قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ٣)(الأنبياء).

والحقيقة المؤيدة بالواقع، أنّ السعي لتعظيم متاع الحياة الدنيا يرسّخ في النفس ملهمات الفجور، مثل الضعف، العجلة، الهلع، الشح، البخل والكبر، الحسد..إلخ، وما ينجم عن ذلك من أعمال فاسدة في الأرض. وكلما رسخت هذه الدوافع في النفس، وكلما استدامت الأعمال الفاسدة بسبب ذلك، كلما صارت حجاباً كثيفاً يرين على القلب حتى تعرض النفس عن مجرد التفكير في إمكانية وجود حقائق وراء ظاهر الحياة الدنيا. بل إن النفس التي أطغاها الانغماس في الشهوات لتجحد ذلك العلم، وإن جاءها به خبر يقين كالوحي: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ 14﴾(النمل)؛ ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ 33﴾(الأنعام)؛ (كَلَّا بَلۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤)(المطففين). ويؤدي خيار الحياة الدنيا إلى حصر الأسباب والعلل للظواهر الكونية، طبيعية كانت أم إنسانية، في إطارها المادي البحت، دون النظر إلى ما وراء ذلك من حِكَم وعبر تنطق بها تلك الظواهر، أو من أسباب وعلل تتجاوز ما هو ظاهر للحواس. وإلى هذا القصور في الإدراك تشير الآيات (3) و(4) حيث يعجز القلب عن تحصيل الفقه المطلوب من الظاهرة الكونية. وقد يصل الأمر في اتباع الهوى إلى أن يطبع الله على القلب فلا يترك الوارد إليه، من نبأ عن طريق السمع، أو مشاهدة عن طريق النظر، أثراً يفيد صاحبه. وإلى هذه الحقيقة يشير مضمون الآيات (3)، (4)، و(7).

الآيات القرآنية السابقة والقول الذي تلاها، تقودنا إلى القول بأن الجسر الذي يعبر عليه الإنسان من العلم بظاهر من الحياة الدنيا إلى علم

آياتها، ومن ظاهر نصوص القرآن إلى جواهر معانيه، إنما هو فقه القلوب. وفقه القلوب إنما ينال بتزكية النفس وذلك بتطهيرها من أخلاق الفجور، والتوبة عن مآلاتها العملية، وتربيتها على أخلاق التقوى، وحملها على العمل الصالح. وهذا يعني أن التربية الإسلامية للإنسان، القائمة على منهج رسول الله، ﷺ، وقد فصّلها أئمة الإسلام، هي من صميم منهجية المعرفة الإسلامية. ومن صميم التربية الإسلامية للنفس أن ترى الكون بظواهره وعلله وأسبابه من خلال العين القرآنية. والعين القرآنية لا تقف عند ظاهر الحياة الدنيا للبحث عن أسباب الظواهر، أو غاياتها، بل تزاوج بين علوم الخبر القادم من وحي السماء، وعلوم المختبر الناشئة من الحس والتجربة للوصول إلى الأسباب والغايات التي تحكم الظواهر الكونية. ذلك أن العين القرآنية عين مربوطة بأحوال القلب، تبصر حين يبصر، وتعمى حين يعمى. وينطبق هذا على الأذن القرآنية، وجميع وسائل الإدراك عند المسلم. وإبصار القلب أو عماه مرهون بموقف الإنسان من الابتلاء الثاوي في زينة الحياة الدنيا، كما تفصله (خطة الخلق العامة).

5.1.4- التطبيقات

أما وقد تحدثنا عن طبيعة العلم التوحيدي، ومصادره، وطبيعة العالِم، ومنهجيته، وجب علينا أن نختم بالهدف أو الغرض أو التطبيقات التي يراد بها ذلك العلم. إن العلم هو وسيلة لتحقيق غاية، وتلك الغاية في إطارها الإسلامي إنما هي تحقيق عبادة الله تعالى القائمة على مبدأ استخلاف الإنسان في الأرض. إذن العلم التوحيدي وسيلة يستخدمها الخليفة(الإنسان) لتنفيذ أمر المستخلِف(الله) فيما استخلف فيه(الأرض). وكل إنسان في مجالات حياته المتعددة هو خليفة لله في تلك المجالات، ومطلوب منه أن يراعي أمر المستخلِف فيها. وجوهر الاستخلاف يدور

حول تعامل الإنسان مع زينة الحياة الدنيا، وما ينبغي عليه القيام به من واجب الشكر المقتضي للعلم والإيمان والعمل الصالح.

2.4- النظام المعرفي الدنيوي

نود هنا أن نستخلص من القرآن الكريم أهم معالم النظام المعرفي الدنيوي في إطار أركان العلم الخمسة حتى تتضح الرؤية في مدى قصوره عن نظيره التوحيدي، وأنه إنما يمثل حالة خاصة فيه، أى أن النظام التوحيدي يستوعبه ويتجاوزه. كذلك نود أن نذكر هنا أن استخلاص النظام المعرفي الدنيوي من القرآن الكريم إنما صار ممكنا نتيجة لطبيعة (خطة الخلق العامة)، القائمة على ثنائية النفس البشرية وابتلائها بالاختيار في مجال زينة الحياة الدنيا بين (الدار الآخرة)، و(الحياة الدنيا).

1.2.4- مصدر العلم:

(1) ﴿وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ29﴾ (الأنعام)؛

(2) ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ 37﴾(المؤمنون)؛

(3) ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ 24﴾(الجاثية)؛

(4) ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ 103﴾(يوسف).

تخبرنا الآيات السابقة أن أكثر الناس حصروا اعتقادهم في الحياة الدنيا وحدها، وكفروا بما وراءها من عالم الغيب. وترتب على هذا الخيار أن أصبح مصدر العلم الوحيد بالنسبة لمن آثروا الحياة الدنيا هو ظاهرها، أي عالم المحسوسات. وهذه النتيجة تتطابق تماماً مع ما ذهبت إليه الفلسفة الوضعية.

2.2.4- محتوى العلم

(1) ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ 7﴾(الروم)؛

(2) ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا 29﴾(النجم)؛

(3) ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ 36﴾(يونس)؛

(4) ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا 28﴾(النجم)؛

(5) ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا 157﴾(النساء)؛

(6) ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ 32﴾(الجاثية)؛

(7) (إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى 23﴾(النجم)؛

(8) ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ 116 ﴾(الأنعام)؛

(9) ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ 148﴾(الأنعام)؛

(10) (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا 157﴾(النساء).

تخبرنا الآيات المذكورة في (1) و(2) إنّ الدنيويين عندما جعلوا مصدر علمهم الوحيد هو عالم المحسوسات، كان لابد أن ينحصر علمهم فيما يظهر منها لوسائل الحس، أي علم القوانين الطبيعية ومنتظم العادات الاجتماعية. ذلك أن علم الآيات يقتضي الإيمان بعالم الغيب، ومن ثم فقه القلوب، وهو ما جحده الدنيويون. الآيات من (3–10) تصف الواقع المعرفي للبشر الممتد عبر تاريخهم الطويل، وفي قضايا معرفية شتى تغطي كل المساحة المعرفية للبشر، الممتدة بين عالمي الغيب والشهادة، ثم تلخّص القضية المعرفية في قانون ذهبي هو: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾. وهذا القانون يصدق على مستوى القضية الوجودية، كما يصدق على مستوى القضية المعرفية. فالحق هو الذي قام عليه الوجود، وهو الذي ينبغي أن يكون متعلق ومطلوب العلم البشري، سواء كان فيما يتعلق بعالم الغيب، أو عالم الشهادة. فمتعلق العلم البشري إما أنه موجود فيصبح وجوده حقا، وإما أنه غير موجود فيصبح وجوده ظنا عند الناس، ولن يغني الظن من الحق شيئا في هذه الحالة. فالله تعالى إما أنه موجود أو غير موجود، وعيسى، عليه السلام، إما أنه قتل أو لم يقتل، والشخص الذي اتهم بقتله إما أنه قتله أو لم يقتله، وذرة الماء إما أنها تتكون من ذرّتيْ أيدروجين وذرة أوكسجين وإما لا.

والإدراك البشري إما أنه يبحث عن الحق فيصيبه فيصبح علماً، أو يخطئه فيصبح ظناً، أو أنه لا يبحث عن الحق فيصبح أيضاً ظناً وهوى متبع، وكل ما يقوله من هذا المنطلق فهو تخرّص. وكلتا الحالتين لا يغني

الظن فيهما من الحق شيئاً، مهما ترجح الظن لدى صاحبه. أما اليقين فهو مقياس التحقق من مطابقة الاعتقاد الجازم للحق الذي نطلبه في المعلوم، وهو درجات يبدأ بمجرد اليقين وينتهي بعين اليقين وحق اليقين.

والمعرفة البشرية إذا طلبت الحق في أي شيء فإن الإشكال الذي يواجهها دائماً هو المنهجية التي تمكنها من الإرتقاء بمعرفتها إلى درجة العلم، أي اليقين من أن الإعتقاد الجازم الذي نحمله عن المعلوم مطابق لحقيقته. وفي غياب الوحي الذي يحتوي على علم يقيني فإن البشرية عاجزة عن الاهتداء إلى منهجية تمكنها من إرساء علومها على قاعدة يقينية. وأفضل ما توصلت إليه في هذا الشان هو المنهج الاستقرائي التجريبي القائم على الملاحظة الحسية والرصد والتصنيف ثم التعميم، ثم التجربة، ولكنه ظل عاجزاً عن مد البشر بعلم يقيني، حتى في المجال الذي حقق فيه نجاحاً باهراً، ألا وهو مجال المادة. وبسبب هذا القصور الذاتي في منهجية المعرفة البشرية ظل رصيدها من العلم، بل وقدرتها على اكتساب العلم، عرضة للشك والزعزعة من قبل كبار العلماء والفلاسفة الغربيين.

ولكن الله تعالى أثبت في الآيات (1) و(2) أعلاه أن العلم بظاهر من الحياة الدنيا(علم القوانين الكونية) ممكن تحصيله من قبل الدنيويين. والحق يقال إن المنهج الإستقرائي الظني قد مكّن البشرية من اكتشاف الكثير من الحقائق الكونية التي أدت إلى انفجار العلوم الطبيعية والتكنولوجيا الحديثة. والظن الراجح الذي انبنى عليه العلم الطبيعي ليس ظنا في الحقيقة العلمية المكتشفة، ولا في الاعتقاد الجازم الذي نحمله عن تلك الحقيقة، ولكنه ظن في المنهج بحيث لا يمكّن العالِم من أن يدعي اليقين التبريري البرهاني في علمه حتى وإن وصل إلى درجة اليقين الكشفي الإلهامي. إذاً قولنا إن العلم البشري ظني لا ينفي أو يناقض القاعدة

القرآنية: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا 36﴾(يونس)، ذلك أن الحقيقة العلمية في ذاتها لا يمكن أن تكون ظنية، والفرضية التي أدت إلى اكتشافها لا يمكن أن تصنف كعلم إلا إذا صادفت في افتراضها كبد الحقيقة التي يسندها تراكم التجارب الواقعية المؤيدة. والظن الراجح وحده لن يكفي لتحويل الفرضية إلى علم، ولا متعلقها إلى حق، إلا إذا كان الحق أصلاً موجودا وصادفته الفرضية، ويظل الظن المنهجي يحكم العالِم وحده، لا الحق الذي يطلبه.

وخلاصة القول إن الذي نفهمه من الآيات القرآنية السابقة المتعلقة بمحتوى العلم هو أن العلم البشري المبتوت عن الوحي يقوم علي الظن، وأن المجالات المحدودة التي أمكن الوصول فيها إلى علم باستخدام مناهجه، ظل هذا العلم قاصراً على ظاهر من الحياة الدنيا، ومسخراً لخدمة أهدافها، ولم يسخر للارتقاء بالبشرية نحو كمالها الذي هو العلم بالله تعالى وعبادته.

3.2.4- العالِم

(1) ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ 22﴾(النحل)؛

(2) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ 56﴾(غافر)؛

(3) ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ 2﴾(ص)؛

(4) ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ 2﴾(الأنبياء)؛

(5) ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى 6﴾(العلق)؛

(6) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ 12﴾(محمد)؛

(7) ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ 55﴾ (النحل)؛

(8) ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ 32﴾ (الجاثية)؛

(9) ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا 44﴾(الفرقان).

يخبرنا القرآن الكريم أنّ من قال: (إن هي إلا حياتنا الدنيا) إنما اختار في حقيقة الأمر أن يصرف همته إلى تعظيم متاعها، فهو إذن شخص لاه القلب، وغافل عن حقيقة الحياة الدنيا، يستوي في هذا الأمر الجاهل وعالم الفيزياء من الدنيويين. والدنيوي في القرآن شخص تمكنت من نفسه أخلاق الفجور، قد استحب العمى على الهدى، فهو مستكبر، معرض عن الحق، فرح بما عنده من العلم، وغرّه الغرور فقال: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ 32﴾(الجاثية).

4.2.4- المنهجية

إنّ المبدأ الحاكم في منهجية ومنهاج تحصيل العلم، سواء كان العالم مؤمناً أم كافراً هو قوله تعالى: ﴿وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ 78﴾(النحل). ونلاحظ أن القرآن الكريم يربط بين هذه الوسائل الإدراكية المعنوية وبين أعضاء الجسد الثاوية فيها بغرض الإدراك، فالسمع متعلق بالأذن، والبصر متعلق بالعين، والفؤاد متعلق بالقلب الذي في الصدر. فوسائل العلم عند جميع البشر متساوية من حيث المبدأ، وهي الحواس زائداً الفؤاد، ولكن قوة إدراك هذه الوسائل يعتمد على أحوال القلب، وأحوال القلب تعتمد على موقف الإنسان من زينة الحياة الدنيا، وموقف الإنسان من زينة الحياة الدنيا

يعتمد على موقفه من الإيمان بالله تعالى، وعلى مقدار إيمان من آمن، أي بموقفه ومقدار إيمانه بالدار الآخرة بنعيمها وجحيمها، ومن ثم مقدار تزكيته لنفسه، وتطهيره لقلبه من فاسد الأخلاق والأعمال التي تحجبه عن إدراك حقيقة الكون كما هي عليه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ 46﴾(الحج)؛ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا24)(محمد)؛ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ 14﴾ (المطففين)؛ ﴿خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ 7﴾(البقرة)؛ ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون 26﴾ (الأحقاف).

إذن فالمنهجية المعرفية عند الدنيويين، بحسب ما ورد في القرآن، ينقصها بعد أساس، ألا وهو القلب الذي يفقه ويعقل. وهذا القصور المنهجي إنما هو ناجم عن موقف قيمي جعل من تعظيم متاع الحياة الدنيا هدفا وقيمة عليا في الحياة، وأنكر الدار الآخرة، وادعى لنفسه رغم ذلك الحياد والموضوعية. وهذا الموقف القيمي حرم الدنيوي من المصدر الوحيد الذي يمده بكليات علمية مقطوع بصدقها يقينا، ألا وهو الوحي. ومن ثم فإن الكليات العلمية عند الدنيوي إنما تقوم على الفرض والتخمين في المنهج الاستنباطي، أو التعميم المؤسس على التجريد الاستقرائي الناجم عن الملاحظة الجزئية، السمعية والبصرية، القاصرة بحكم الموقف القيمي المسبق. وهكذا فإنّ الظن وليس اليقين هو أهم سمة تميز منهجية البحث العلمي عند العالِم الدنيوي. والظن هنا قد يأتي من عدة مصادر منها عدم

قدرة وسائل الحس على نقل حقيقة المحسوسات كما هي، ومنها عدم وجود اللغة البشرية المجرّدة من التعميمات والإبهام بحيث يمكنها التعبير عن المشاهدات الحسية كما هي، ومنها عدم القدرة على الإحاطة بكل جزئيات الظاهرة التي منها تستقرأ الكليات.

5.2.4- التطبيقات

(1) ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ 20﴾(الحديد)؛

(2) ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ 32﴾(الأنعام)؛

(3) ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ 2﴾(الأنبياء).

إنّ الآيات الكريمة السابقة تخبرنا أن رؤية العالم الدنيوية إنما تقوم على تعظيم متاع الحياة الدنيا، التي في جوهرها لهو ولعب، وتكاثر في الأموال والأولاد. إذن فإنّ الهدف الأساس من العلم في النموذج المعرفي الدنيوي هو اكتشاف أسباب الكون، ثم ترويضه واستغلاله لإشباع شهوات الإنسان من متاع الحياة الدنيا. وهذه النتيجة تطابق تماماً جوهر الحضارة الغربية المعاصرة، سواء كان على مستوى الفكر أو التطبيق.

الفصل الخامس
مثال من القرآن: الظاهرة السبئية حالة تفسيرية

لعل خير مثال نسوقه لندلل به على الفرق بين تفسير النسق المعرفي التوحيدي للظواهر الكونية وذلك الدنيوي هو ما أورده القرآن الكريم في سورة سبأ عن انهيار سد مأرب، وما سبقه وما تبعه من ظواهر طبيعية وإنسانية، وكيفية تفسيرها. ولقد أطلقنا عليها ظاهرة لأنها تظل تتكرر إلى زماننا هذا، وبوتيرة متسارعة، مما يضفي على تفسيرها القرآني أهمية خاصة في إطار النموذج المعرفي التوحيدي. جاء في هذا الخصوص قوله تعالى:

(لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ 15 فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ 16 ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ 17 وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ 18 فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ 19 وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ 20 وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾(21 سبأ).

دعونا الآن نعيد سرد الوقائع القرآنية بأسلوب أهل الأرض ثم ندعو كلا من النموذجين المعرفيين، الدنيوي، والتوحيدي، ليعطيانا تفسيراً علمياً للظواهر الواردة في الآيات الكريمة. لقد كانت هناك، في قديم الزمان، قبائل تسكن في أرض قيل إنها اليمن، ولقد تمكنت تلك القبائل من إقامة مملكة ذات حضارة تسمى مملكة سبأ. ولقد تمكنت تلك المملكة من إنشاء سد عظيم تجمعت فيه مياه الأمطار عبر الزمان مما مكّن من زراعة رياض غناء وبساتين فيها كل أنواع الفواكه والثمار. وكانت لهؤلاء القوم تجارة مع بلاد الشام والحجاز يستغرق السفر فيها زمناً طويلا، ولكن وجود القرى الكثيرة على الطريق جعل سفرهم أكثر أمنا وأقل مشقة. وهكذا سارت الحياة بأولئك القوم هادئة وادعة ردحاً من الزمن، ثم فجأة تبدل كل شيىء حينما اجتاح سيل كاسح السد فانهار، وتبعته ظواهر بيئية جديدة، فقد أجدبت الأرض ولم تعد تنبت إلا ثماراً صحراوية لا يستساغ مذاقها مقارنة بثمار ما كان من قبل. وصاحب كل ذلك نزوح وهجرات فردية وجماعية لأولئك القوم إلى مختلف أنحاء الأرض، مما أدى إلى تمزق المجتمع والجماعات وتشريدها.

هذا باختصار مضمون القصة القرآنية، ونلاحظ أن هناك ظواهر طبيعية وإنسانية تلاحقت خلال هذه القصة، فهناك سد قد انهار، وأرض أجدبت بعد اخضرار، وأسر تشتت بعد استقرار، واقتصاد انهار بعد إعمار. وجميع هذه الظواهر التي حدثت لأولئك القوم تعيش البشرية وقائعها الأليمة في عصرنا هذا، وبوتيرة متسارعة، بل لعلها تحتل موقع الصدارة في قائمة هموم البشرية اليوم. لذلك فإنّ التفسير العلمي السليم لها يكتسب أهمية عملية تتجاوز مجرد التمرين الأكاديمي الذي نحن بصدده.

والآن لنطلب من المدرسة الوضعية الدنيوية إرسال فريق من علمائها لدراسة الظاهرة السبئية، وإيجاد تفسير علمي لأسباب حدوثها، وما ينبغي على البشرية أن تفعله حتى تتفادى حدوث كارثة كهذه. من المرجّح أن يضم الفريق العلمي للنموذج المعرفي الدنيوي علماء في الهندسة، والجيولوجيا، والمناخ، والبيئة، والزراعة، والاقتصاد والدراسات السكانية، والاجتماع وغيرهم ممن لهم علاقة بتلك الظواهر. وسوف يكون من مسلمات النموذج اللازمة للدراسة لهؤلاء العلماء ما يلي:

1- أن يكون الباحث محايداً قيمياً، بمعنى أن لا يحمل أي أفكار قيمية مسبقة عما حلّ بسبأ، بل عليه أن يأخذ جميع معطياته التحليلية مما يشاهده ويعايشه في موقع دراسته فقط؛

2- عدم إقحام أي أبعاد غيبية في تفسيره لتلك الظاهرة؛

3- البحث عن قوانين طبيعية ومنتظم عادات سلوكية واجتماعية عامة تبنى حولها نظريات يمكن أن تندرج تحتها الظواهر موضوع الدراسة؛

4- الوصول إلى نتائج يمكن اختبار صدقها تجريبيا.

الآن نلقي نظرة على التقرير العلمي لعلماء الدنيوية الوضعية عن الظاهرة السبئية. إن علماء الهندسة سوف يبحثون عن أسباب انهيار السد في القوانين الهندسية والفيزيائية التي على أساسها بني السد، وإمكانية وجود خطأ ما في النسب التي بها خلطت مواد البناء، وقوة مقاومتها لضغط التيار المائي، وعمر السد الافتراضي، والزوايا الهندسية المناسبة..إلخ. وعلماء الجيولوجيا سوف يبحثون في طبيعة التربة والصخور التي منها بني السد..إلخ. والراجح أن يعلل هؤلاء العلماء انهيار

السد بخطأ هندسي أو جيولوجي من نوع ما، وسوف تكون توصيتهم هي مراعاة عدم الوقوع في مثل تلك الأخطاء مستقبلاً.

أما علماء البيئة والمناخ المنوط بهم دراسة الأسباب التي أدت إلى أن تتبت الأرض شوكاً بعد أن كانت تتبت ربما تينا وزيتونا، فغالباً ما يبحثون عن الأسباب في التغيير الذي طرأ على المكونات الغذائية للنبات في التربة في أرض سبأ، والتغييرات المناخية المفاجئة التي جعلت البيئة أصلح للسدر منها للتين والزيتون..إلخ. وربما يوصون بضرورة إضافة أسمدة من نوع ما، وإدخال دورة زراعية بطريقة معينة، والاستفادة من المياه الجوفية إن وجدت، بل وحتى استخدام المباني الخضراء (Green Houses) إن أردنا أن نعيد الزراعة في سبأ سيرتها الأولى.

أما علماء الاقتصاد والسكان فسوف يرجعون أسباب انهيار الاقتصاد السبئي والهجرات السكانية التي تلت ذلك إلى تناقص الإنتاج بصورة حادة ومفاجئة نتيجة لانهيار السد. ونتيجة لانهيار سوق العمل بسبب خراب القطاع الإنتاجي، وارتفاع أسعار السلع الغذائية نتيجة للنقص الحاد في الغذاء، وما تلا ذلك من معيشة ضنكة، هاجرت الأيدي العاملة القوية للبحث عن مصادر رزق في أماكن أخرى، مما أدى إلى المزيد من إضعاف البنية الاقتصادية، إنتاجاً واستهلاكاً. وربما حلّت المجاعة نتيجة كل ذلك فمات من مات وهاجر من هاجر. أما التوصيات فغالباً ما تربط إعادة الحياة الإقتصادية والسكانية سيرتها الأولى بضرورة إعادة بناء السد، وقيام المشاريع الزراعية التي كانت من قبل.

هذا في مجمله ما نتوقعه من تقرير النموذج المعرفي الوضعي الدنيوي في دراسته ومعالجاته للظاهرة السبئية. وهو تقرير كما نرى

يستوفي جل، إن لم يكن كل، شروط البحث العلمي الذي تقرره المدرسة الوضعية. ولكن يبقى السؤال: تُرى لو كان قد تدارك أهل سبأ جميع الأخطاء التي ذكرها تقرير علماء الوضعية، أو أعادوا ترتيب أمورهم من جديد بناء على تلك التوصيات، هل كان ذلك يقلل من احتمال إنهيار السد أمام الضغط المائي المتولد عن سيل العرم الجارف؟

إن الإجابة على هذا السؤال، بناءً على معطيات النموذج المعرفي الدنيوي، هي "نعم" حاسمة، ولكنها "لاء" نافية بناء على معطيات النموذج المعرفي التوحيدي، كما تقررها آيات القرآن الكريم موضوع الحديث. فكيف يا ترى يفسر النموذج المعرفي التوحيدي الظاهرة السبئية؟.

لقد قلنا من قبل إن العلم المتعلق بالأسباب الطبيعية والسنن الاجتماعية في النموذج التوحيدي له دوران؛ عقدي ووظيفي، أما الدور العقدي فيتعلق بلفت انتباه الإنسان إلي الفعل الإلهي المهيمن في الظاهرة موضوع الدراسة؛ أي إلى (الآية) بلغة القرآن، إما كدليل على الفاعل لتوحيده، أو للاعتبار طمعاً في وعده وخوفاً من وعيده. وأما الدور الوظيفي فيتعلق بتوظيف تلك الأسباب والسنن من أجل تحقيق المعايش والعمران في الأرض. وغالب ورود السنن الاجتماعية في القرآن مصوّب نحو دورها العقدي. لذلك نجد أن القرآن الكريم في تفسيره للظاهرة السبئية، في إطار النموذج التوحيدي، بدأ بتحديد الإطار التفسيري المناسب، وذلك في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ﴾، فورود كلمة آية في إطار ظاهرة كونية في القرآن الكريم يضع الظاهرة في إطار سببي غيبي موصول بخالق الأكوان سبحانه و**بخطة الخلق العامة**، ومن ثم يخرجها من دائرة السببية المادية الصلبة، على قول (المسيري)، التي هي من

سمات النموذج المعرفي الدنيوي. والآية التي كان على قوم سبأ الانتباه لها هي طبيعة الابتلاء الثاوي في **خطة الخلق العامة**، القائم على الفتنة في زينة الحياة الدنيا(المال،البنون)، ومقتضيات ذلك الإبتلاء. فالجنان الوارفة التي تحفهم عن يمين وشمال، والسد المنتصب وقد امتلأ بالماء، والمال الوفير المتدفق من تجارتهم مع الحجاز والشام، والحياة الطيبة التي كانوا يعيشونها بسبب تلك النعم، كل ذلك إنما يرد تفسيره في سلسلة من آيات الذكر الحكيم نذكر منها قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا7﴾(الكهف)؛ ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ 15﴾(التغابن)؛ ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ 55 نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ 56﴾(المؤمنون)؛ ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا 10 يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا 11 وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا 12﴾(نوح)؛ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ 7 ﴾(إبراهيم)؛ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إَلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا 61 قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً 62 قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُورًا 63 وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا 64 إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً 65﴾(الإسراء)؛ ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ 16 ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ 17﴾(الأعراف).

أما العمل الحسن أو الصالح المطلوب من قوم سبأ في هذا المقام فهو ذلك الذي يؤدي إلى شكر النعمة: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ 15﴾(سبأ). وفي إطار "الآيات" كمنهجية تفسيرية توحيدية فإن شكر النعمة أو كفرها تترتب عليه سنن مضطردة في حياة الناس يلخصها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ 7)(الأنفال)؛ ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى 124﴾(طه)؛ ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ 97﴾(النحل)؛ وفي قوله: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ 30﴾(الشورى)؛ ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ 36﴾(الزخرف).

إذن عندما فسرت الآيات ما حاق بقوم سبأ من كوارث طبيعية وإنسانية إنما كانت تستصحب معها هذه السنن الإلهية المضطردة التي تحكم العلاقة بين أفعال الناس في تعاملهم مع زينة الحياة الدنيا، شكراً أو كفراً، وبين ما يكتنفهم من ظواهر كونية، إيجاباً وسلباً. لذلك فإن القرآن الكريم إنما فسر انهيار السد بإعراض قوم سبأ عن شكر الله على نعمه السابغة عليهم، ظاهرة وباطنة، فأرسل عليهم سيل العرم(فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم) كنتيجة لازمة لسنته التي بيّنها في قوله: (ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾، وبدّل جنتيهم الغنيتين بأخريين فقيرتين تحقيقا لسنته: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ 53﴾(الأنفال). وقيّض لهم الشياطين تؤزّهم أزّا كنتيجة

لسنته التي لا تحويل لها ولا تبديل: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ 36﴾(الزخرف). وقد دل على ذلك ختمه تعالى لقصة سبأ بتصديق إبليس ظنه فيهم فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين. وإبليس وذريته من الشياطين طرف أصيل وعنصر أساس في **خطة الخلق العامة** بتفاصيلها التي سلفت. ونفس التحليل يصدق على كارثة النزوح واللجوء السكاني التي أصابت قوم سبأ: ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ 19﴾(سبأ). وينبغي أن نلاحظ أن النموذج التوحيدي قادر على أن يقول إن سيل العرم أُرسل قصدا من قِبَل من هو قاهر فوق عباده لتدمير حياة سبأ، ولن يستطيع النموذج الدنيوي أن يدعي ذلك أبدا.

وهكذا نرى أنّ العلاقات السببية التي أوردها النموذج المعرفي التوحيدي في تفسير الظاهرة السبئية لجد مختلفة عن تلك التي أمدنا بها النموذج المعرفي الدنيوي. لهذا نستطيع أن نقول إنه ما لم تنتف الأسباب التي أوردها النموذج المعرفي التوحيدي في تعليل الظاهرة السبئية فإن انتفاء الأسباب التي أوردها النموذج الوضعي الدنيوي وحدها لم ولن يكون كافياً لزوال ما أصاب قوم سبأ من كوارث، ناهيك عن ضمان عدم وقوعها أصلاً. وهذا يعني أن السياسات الاصلاحية التي سوف يوصي بها النموذج التوحيدي، في إطار تفسيره للظواهر الاجتماعية والطبيعية، سوف تتمدد في المجالين العقدي(الغيبي) والوظيفي(المادي).

إنّ العلاقات السببية التي أوردها القرآن الكريم في تفسير الظاهرة السبئية ما كان لها أن تكتشف أبداً في إطار الرؤية الكونية الدنيوية، لأنها لا تراوح ظاهر الحياة الدنيا، بينما السببية المندرجة في إطار النموذج

التوحيدي لا تكشف عنها إلا الرؤية الكونية التوحيدية المبنية على معطيات الوحي الإلهي. إن هذه العلاقة السببية الهامة بين أفعال الناس من جهة، من حيث كونها شكراً أو كفراً بأنعم الله، وبين ما يكتنف حياتهم من ظواهر طبيعية واجتماعية، لهي عنصر مهم في تكامل العلوم الاجتماعية التوحيدية والعلوم الطبيعية في دراسة تلك الظواهر. مثل هذه المنهجية البحثية تؤدي إلى نتائج أكثر صدقاً، ومن ثم أكثر علمية؛ والسياسات الإصلاحية التي تنبني عليها أحكم وقعا، وأبعد مدى، وأكثر استدامة من تلك التي تتأتى من تفسيرات وتوصيات النموذج المعرفي الدنيوي. ولكن هذا لا يتأتى إلا في إطار الرؤية الكونية التوحيدية المستقاة من علوم الوحي، مما يؤدي إلى مزج السببية الصلبة القائمة على القوانين الفيزيائية بتلك السببية "السائلة" القائمة على السنن المعنوية التي بينها الوحي، في إطار نسق معرفي متكامل ومتجانس.

والطريف حقاً هو أنّ عامة المسلمين يستخدمون السببية التي أشرنا إليها سابقاً بكثرة في تفسيرهم اليومي للظواهر والأحداث التي تكتنف حياتهم، ولا تصرفهم التفسيرات المؤسسة على العلوم الغربية الحديثة، طبيعية واجتماعية، عن حقيقة الأمر الإلهي الذي هو وراء كل ظاهرة، وكل حدث. ولكن الأبحاث العلمية التي يقوم بها علماء المسلمين من خريجي المدرسة الوضعية الدنيوية تخلوا تماماً من الإشارة إلى هذا النوع من العلاقات السببية التي يتكامل فيها علما الخبر الغيبي والمختبر الحسّي. والسبب في ذلك طبعاً أن المنهجية الوضعية لا مكان فيها لما لا يمكن ضبطه بوسائل الحس من ملاحظة وتجربة.

ولا ينبغي أن يفهم من هذا أنّ العلاقات السببية المبنية على الأسباب الطبيعية ومنتظم العادات الاجتماعية، التي أوردناها في إطار النموذج الدنيوي، ليست جزءاً من العلاقات السببية للنموذج التوحيدي، ولكنا أوردنا السنن المعنوية الكلية التي اقتصر عليها القرآن في تفسير الظاهرة السبئية لنبين مدى الزيادة في العلاقات السببية التي يتميز بها النموذج المعرفي التوحيدي عن نظيره الدنيوي. ويمكن أن نجمل هذه المقارنة بين النموذجين المعرفيين، من خلال تفسير كل منهما للظاهرة السبئية، في النتيجة الآتية:

"النموذج المعرفي التوحيدي يستوعب ويتجاوز النموذج المعرفي الدنيوي".

إنّ النموذج المعرفي التوحيدي وهو يفسر الظواهر التي تنجم عن أفعال الناس، أو تكتنف حياتهم، وهم يتدافعون في تحصيلهم لزينة الحياة الدنيا ونيل حظوظهم من متاعها، يأخذ في الاعتبار، أولاً؛ السنن الإلهية الكلية الحاكمة التي بنيت على تعامل الناس مع نعم الله، شكراً أو كفراً، كتلك التي فسر الله تعالى بها الظاهرة السبئية. ثم، ثانيا؛ يتدرج في إيراد الأسباب الحسية المبنية على الأسباب الطبيعية ومنتظم العادات الاجتماعية، التي تبدو للناس عادة أنها المسئولة مباشرة عن وقوع الظواهر. فكأنّ السنن المعنوية الكلية التي أوردها القرآن هي المسئولة حقيقة عن الظاهرة السبئية وما يجييء على شاكلتها من ظواهر، بينما الأسباب الطبيعية ومنتظم أنماط الفعل والعادات الاجتماعية لا تعدو أن تكون وسائل لوقوع أقدار الله المترتبة على دخول الناس بأفعالهم الإرادية في مجال عمل كل أو بعض تلك السنن المعنوية الكلية. ولا يقلل هذا بالطبع من قيمة الأسباب الحسية كأساس ومجال للفعل البشري الإرادي في

تعامله مع زينة الحياة الدنيا. ذلك أنه بمقتضى هذه الأسباب يتم الهروب من قدر من أقدار الله إلى آخر ألطف منه؛ من الفقر إلى الغنى، من الخوف إلى الأمن، من الجوع إلى الإطعام، من العري إلى الكساء، من المرض إلى العافية، ومن الحر إلى الظل...الخ. وبمقتضى هذه الأسباب يتم الخروج كذلك من سنة معنوية كلية مثل سنة الكفر والدخول في أخرى مثل سنة الشكر، كل ذلك في إطار الابتلاء الثاوي في **خطة الخلق العامة** الذي تقوم عليه حياة البشر في هذه الأرض، وبكسبهم الاختياري فيه يحاسبون.

إنّ العالِم المسلم، سواء كان طبيعياً أم اجتماعياً، عندما يقبل على دراسة الظواهر السالبة التي تحيط بالناس كالزلازل، الفيضانات، المجاعات، الجفاف والتصحر، تلوث البيئة، الأمراض البدنية والاجتماعية، الحروب..إلخ، أو على دراسة الظواهر الموجبة في كل مظاهر زينة الحياة الدنيا كوفرة في الإنتاج وغزارة في الأمطار وحظ وافر من العلم والتكنولوجيا وعافية في النفس والبدن..إلخ، لابد أن يستصحب معه النظام المعرفي التوحيدي الذي تتكامل فيه العلاقات السببية. تلك العلاقات السببية التي تجعل العلاقة بين الإنسان وبين خالقه، من حيث الأمر والنهي، والإذعان والعصيان، في قلب الأسباب ومن ثم الدراسة.

ويبقى التحدي الكبير في كيفية بناء نموذج معرفي توحيدي فعال تنسجم فيه العلاقات السببية الكلية والجزئية، المعنوية والحسية، بحيث يستطيع عالم الإقتصاد المسلم، مثلاً، أن يدرس أسباب اللجوء والنزوح والهجرات السكانية والخراب الاقتصادي الذي حل بقوم سبأ فيحدد السنن المعنوية الكلية الحاكمة للظاهرة، وأنماط الفعل البشري الإرادي الراتب، في

المجالين الطبيعي والاجتماعي، التي أدخلت الناس في مجال عمل هذه السنن الكلية، ومن ثم تقديم تفسير علمي تتكامل فيه السببيتان "الصلبة" و"السائلة". كذلك ينبغي أن يمكّنه هذا النموذج من تحديد السنن المعنوية الكلية البديلة التي يؤدي الدخول فيها إلى إصلاح الحال، وأنماط الفعل البشري التي ينبغي اتباعها، والسنن الطبيعية ومنتظم العادات الاجتماعية التي يجب التزامها، بما يؤدي إلى تقديم توصيات ناجعة لمعالجة الأمر موضوع الدراسة. وهناك ظواهر تحتمل لأول وهلة أن تكون نعمة سببها الشكر أو أن تكون نقمة سببها الكفر، ولا تتبين حقيقتها إلا بالدراسة الميدانية الدقيقة لأنماط الأفعال الاجتماعية الراتبة التي أثمرت تلك الظواهر، فمثلا ظاهرة الغنى والوفرة الاقتصادية ورفاه العيش تحتمل أن تكون نتيجة **سنة الشكر**: (لئن شكرتم لأزيدنكم)، ولكنها أيضا قد تفسر **بسنة الاستدراج**: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ 55 نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ 56 ﴾ (المؤمنون)؛ ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ 44﴾ (الانعام).

أما المنهج البحثي المتخصص الذي ينجم عن مثل هذه المنهجية والذي ينبغي أن يتبعه الباحث المتخصص لإنجاز بحثه فهذا موضوع آخر لم تتناوله هذه الدراسة، ولكن قضاياه لا تقل أهمية عن القضايا التي بحثت هنا. ولكن من الواضح أن الاختلاف في منهجية النموذجين كما بيناه أعلاه سوف يؤدي بالضرورة إلى اختلاف جذري، وإن لم يكن كلي، في مناهج البحث، ذلك أن المدخل النظري في مقاربة موضوع البحث سوف يختلف كما لاحظنا من الظاهرة السبئية، وسوف يؤدي هذا

الاختلاف إلى اختلاف في الفرضيات المتولدة عن تلكم النظريات وإلى اختلاف في طرائق إثباتها أو دحضها، كما سوف تختلف المتغيرات ذات الأهمية التفسيرية وروابطها، ومن ثم المتغيرات التي تقابلها في الواقع الدراسي، مما سوف يؤدي إلى اختلاف في نوع البيانات والمعلومات المناسبة التي يجب جمعها من الظاهرة، وقد يؤدي ذلك إلى اختلاف في طرائق جمع المعلومات وتصنيفها وتحليلها...الخ. ومما لا شك فيه أن النموذج الدنيوي الوضعي فقير جدا في مدنا بالمعلومات الضرورية المتعلقة بدراسة الظواهر الاجتماعية إذا ما قورن بالنموذج التوحيدي، مما يعني ضعف قدرته التفسيرية تبعا لذلك.

نختتم هذا البحث بتلخيص مضمونه، ممثلا في أوجه الاتفاق والتباين بين النموذجين التوحيدي والدنيوي، في إطار النظام المعرفي الشامل للاجتماع الانساني الذي استنبطناه من القرآن الكريم في الصفحات السابقة، في الجدول أدناه. وتؤكد المقارنة أن النموذج التوحيدي يستوعب ويتجاوز النموذج الدنيوي في كل ما اصطلحنا على أنها أركان العلم الخمسة: المصدر؛ المحتوى؛ المنهجية؛ العالِم؛ الأهداف.

الشكل رقم(5)

النظام المعرفي التوحيدي والنظام المعرفي الدنيوي

(دراسة مقارنة)

أركان العلم	النظام المعرفي التوحيدي	النظام المعرفي الدنيوي
المصدر	الله الوحي الكون	– – الكون
المحتوى	*علم الغيب *علم الشهادة: – قوانين طبيعية – سنن اجتماعية – أحكام قيمية – أحكام خبرية – علوم تحليلية – علم لدنّي	– *علم الشهادة: – قوانين طبيعية – – – – علوم تحليلية –
المنهجية	– سمع – بصر – فؤاد – قلب	– سمع – بصر – فؤاد
العالِم	إنسان (مؤمن)	إنسان (كافر)
الأهداف	تعظيم العمل الصالح في زينة الحياة الدنيا	تعظيم المتاع في زينة الحياة الدنيا

مذكرات

(1) أنظر في هذا الإطار ورقة د. محمد الحسن بريمة: "الرؤية الكونية القرآنية كأساس للعلوم الإجتماعية" .كتاب سلسلة المنهجية الإسلامية(3)، تحرير أ.د. عبد الله محمد الأمين وآخرين(2007)، إمام والتنوير المعرفي، السودان.

(2) أنظر فيما يتعلق بمفهوم المنهجية والمنهج بحث فتحي حسن ملكاوي بعنوان: المنهاج والمنهاجية؛ في كتاب: المنهجية الإسلامية(ج1)؛ المعهد العالمي للفكر الإسلامي(2010).

(3) القرآن والنظر العقلي، فاطمة إسماعيل محمد إسماعيل، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1993م، واشنجطن.

(4) Introduction to the Theory of Knowledge, by D.G.O'conner and B Carr.,1982, University of Minnesota Press,

(5) راجع موضوع النسبية المعرفية عند الغربيين في كتاب: Methodology for the Human Science, by D. Polkinghorne, 1983, State University of New York Press.

(6) أنظر مكتبة المستلات للمعهدالعالمي للفكر الإسلامي ، حزمة رقم (1) بعنوان: مفاهيم (الفكر–المنهجية_المعرفة_الثقافة_الحضارة). كذلك أنظر كتاب الدكتور إبراهيم أحمد عمر: العلم والإيمان (مدخل إلى نظرية المعرفة في الإسلام). المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1990م.

(7) أنظر فيما يتعلق برؤية العالم الإسلامية بحث عبد الحميد أبو سليمان بعنوان: "الرؤية الكونية الحضارية"؛ في كتاب: المنهجية الإسلامية؛ المعهد العالمي للفكر الإسلامي(2010)؛ وكذلك كتاب د.

محمد مجذوب محمد صالح بعنوان: رؤية العالم في المفهوم الإسلامي: أسس نظرية في صنع السياسة الكونية المعاصرة؛ مركز دراسات الإسلام والعالم المعاصر (2008).

(8) أنظر في موضوع النماذج التفسيرية بحث عبد الوهاب المسيري بعنوان: "النماذج المعرفية الإدراكية والتحليلية"؛ في كتاب: المنهجية الإسلامية(ج2)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي(2010). وكذلك في ذات الكتاب أنظر بحث أ.د. علي ليلة بعنوان: "النظرية الاجتماعية من منظور إسلامي: البحث عن نموذج تفسيري للمجتمع". أنظر أيضا في ذات الكتاب بحث أ.د. رفعت العوضي بعنوان: "النموذج التفسيري الإسلامي للاقتصاد(رؤية مقارنة)".

رقم الإيداع

223/ 2013م